محمد مغازى محمد

قصص الأنبياء

بحوث مثيرة

الجزء الثانى

- هود وصالح
- إبراهيم واسماعيل ولوط
- يعقوب ويوسف

مراجعة وتقديم

محمد عبد الله السمان

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي
الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

صدق الله العظيم

مقدمة

بقلم محمد عبد الله السمان

● كانت مقدمة الجزء الأول تتسم بالعمومية أكثر من الخصوصية ، وفى هذه المقدمة للجزء الثانى ، أردت العكس ، مع الاحتفاظ بأننى حرصت فى سعادة - على أن أراجع الكتاب وأقدم له لسببين :

الأول : أن المؤلف مبتدئ ومجتهد معا . .

الآخر : أن المؤلف يفجر بأنه لايحمل مؤهلا دراسيا يتكئ عليه ويزهو به ، وبأن القراءة هى مؤهله ، استنادا إلى كلمة العقاد - رحمه الله : « العلم هو القراءة » .

وأكرر القول :

إن الكتابة فى موضوع اكتظت المكتبة الإسلامية به ، بأقلام العلماء والمفكرين من السلف والخلف ، ليس معنى هذا أن يحجر السابقون على اللاحقين ، شريطة أن يدرك اللاحقون أن المهمة شاقة ، فإذا لم يأتوا بجديد ، ومارسوا التكرار فيما يكتبون ،فإنهم - عندئذ - يسهمون فى اتخام عقول القراء بلامبرر .

● إن من يحاول الكتابة عن قصص الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - يجب أن يدركوا أن هدف القرآن من تسجيل القصص : التذكار والعظة والاعتبار . .

وهذا لايتحقق إلا إذا كان الاهتمام بالمعنى لاباللفظ ، والموقف لا الحدث ، فى إيجاز محكم حتى لايختفى المعنى ويتوارى الموقف .

مثال :

قال الله تعالى :

﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾

سورة يوسف : ٢٠

الحكمة هنا : لزهدهم فيه باعوة بدراهم معدودة فإذا رحنا نبحث وننقب عن عدد الدراهم ، وما قيل فى هذا العدد ، وننسى لو أن لذكر العدد أهمية ، لذكرها القرآن . . فإننا عندئذ نسيئ إلى القارئ ، بل إلى كتاب الله نفسه .

ومثال من سورة الكهف : ٢٠

﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾

برغم ذلك يحاول المؤلفون الاهتمام بالعدد ، ولقد تجاهلوا لو أن للعدد أهمية لذكره القرآن ، بل إن الله قال لرسوله : ولا تمار ـ تحاور فى العدد أحدا من اليهود والنصارى ، حسبك ما نزل به الوحى .

* * *

● ومما يحمد للمؤلف :

أنه فى كل قصة التزم بتتبع الآيات القرآنية فى كل قصة من قصص الأنبياء مراعيا الإيجاز فى الشرح والتعليق ، كما اهتم بإبراز المعانى والتأكد على المواقف ، وفى أحيان قليلة كان يضفى على المعنى أو الموقف ظلالا خفيفة من المعاصرة فى إطار المقارنة .

وما يحمد له أيضاً :

أنه تحاشى كل مادونته التفاسير القرآنية من إسرائيليات مستمدة من التوراة ، أو لا مصدر لها ، وقد غرم بهذه الإسرائيليات بعض مفسرى القرآن فى تفاسيرهم مثال الخازن وغيره .

وكان للمؤلف آراء اجتهادية فى تفسير بعض العبارات ، مثال ! . . لولا أن رأى برهان ربه . . فهو يرى : أن لا ضرورة لأن يكون هذا البرهان شيئا ملموسا أو مرئيا ، وماذا يمنع من أن يكون إحساسا شعوريا داخليا ، استشعر عظمة الله ، مثال قوله تعالى :

﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ سورة القصص : ١٠

إن أم موسى لم تر شيئا منعها من أن تفشى سر ابنها ولكنه نور قذفه الله فى أعماقها منحها الثبات .

ونضيف :

إن لنا مثلا من الحديث الصحيح ، فقد سئل الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه : ما الإحسان ؟ فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإذا لم تكن تراه فإنه يراك .

والمعنى : استشعار وجود الله وعظمته .

ويؤخـذ على المؤلـف :

تكراره أحيانا لبعض رؤاه :

مثل تفسيره للفظ قرية « يرى أن اللفظ يطلق على المدينة والبلدة والقرية ، ما عدا مكة ، فهى أم القرى و . . . »

لقد كررها بضع مرات بلا مبرر .

ويؤخذ عليه أيضاً :

تسرعه أحيانا فى إصدار حكم بلا روية ، مثال قوله : إن سورة المؤمنون مدنية ، وهي كما هو معلوم مكية ، وذلك عندما عرض للآية : ٩١

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾

السورة مدنية .

ومعـذرة :

إن القراءة وحدها تكفى لمن لا تطمع نفسه فى التأليف ،وألزم شئ للمؤلف : دراسته للغة العربية دراسة وافية ، فهذا يساعده على استيعاب القراءة من ناحية ، ومن ناحية أخرى على الكتابة التى يستريح إليها القارئ المثقف .

كان العقاد حجة فى اللغة ، وجديراً بأن كان من أبرز أعضاء مجمع الخالدين : بجمع اللغة العربية .

ومثل هذه الملاحظات لاتقلل من جهد المؤلف ، وأسلوب السهل الممتنع الذى اعتمده فى مؤلفه ، ولو اعتبرنا ـ جدلا ـ هذه الملاحظات عيوبا فحسب المؤلف قول الشاعر :

ومن الذى ترضى سجايا كلها
كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

والله الهادى إلى سواء السبيل

محمد عبد الله السمان

القاهرة ـ بريد العتبة ص.ب : ١٦٢١

ت : ٥٦٨٣٥٦٤ محمول : ٠١٠/٥١١٨٠٨٦

هــــود

عليــه الســـــلام

التعريف بقوم هود :

ففي سورة الأحقاف الآية ٢١ : وما بعدها يقول تعالى :

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾ الخطاب موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - يذكره بقصة قوم عاد مع أخيهم هود عليه السلام ، وهو أخوهم في النسب لا في الدين ، فهم كفرة مشركون ، وهو رسول الله مرسل إلى قومه ، ليقتدى به ويهون عليه تكذيب قومه له من قريش .

ويذكر المشركين المعادين للدعوة الإسلامية بما آل إليه قوم عاد من عذاب ، ومنازلهم لازالت باقية على مقربة من قومك أهل قريش ، وهي جنوبي جزيرة العرب ، وكما دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ولقى من عنت قومه عاد ما لقى ، فقد لقى أخوه محمد صلى الله عليه وسلم من قومه المشركين ما لقى من تكذيب وأذى ولكن النصر دائما حليف الصبر : إذ أنذر قومه بالأحقاف - و هي الأماكن المرتفعة رمليا : ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ أى سبقته أنبياء ورسل لينذروا أقوامهم ، فسلسلة الرسالات متصلة الحلقات من آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، والدعوة واحدة لاخلاف فيها وهي عبادة الله وحده .

دعوتهم إلى عبادة الله :

﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ إنذار واضح وقاطع لا استثناء فيه ﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ وكل نبى يأتى قومه برسالة من الله لينصحهم ويوجههم إلى رضى الله ، وعندما يصدون عن دعوته يشفق عليهم ويقول لهم : ﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ فالرسول يرسله الله رحمة لقومه ينام ويصحو وهو حامل همهم يتمنى هداهم ، وليس العذاب العظيم الذى ينذرهم به هو عذاب يوم القيامة فقط ، بل هو العذاب الذى سينزل بهم فى هذه الدنيا بسبب كفرهم وتعنتهم لرسالة نبيهم :﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ أى لتصرفنا عن عبادتها بدعوتك : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ فبدلا من أن يطلبوا الهداية من الله يطلبون من نبيهم استعجال العذاب الذى ينذرهم به وفيه هلاكهم : إن كنت صادقا حقا فيما تدعى بأنك نبى مرسل من عند الله : ﴿ قال إنما العلم عند الله ﴾ يقول : مجئ العذاب من عند الله لا من عندى ولاأعلم ما هو العذاب الذى سينزل بكم ولاكيف يكون : ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ من العذاب والهوان الذى سيحيق بكم :﴿ ولكنى أراكم قوماً تجهلون ﴾ فى استعجالكم بنزول العذاب .

* * *

رؤيتهم للسحاب وتدميره لهم :

﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ والعارض هنا هو السحاب الذى رأوه مستقبل ديارهم أى فى الطريق إليهم ، ففرحوا به فقد كان المطر حبس عنهم طويلاً فلما رأوه أى السحاب قالوا هذا عارض ممطرنا أى لنشرب نحن ومواشينا ونسقى زراعتنا وبساتيننا ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ فالعذاب جاءهم من ناحية البشرى : ريح ممطرنا بل ريح فيها عذاب أليم ، وذلك حسب طلبهم فأتنا بما تعدنا : ﴿ تدمر كل شئ بأمر ربه فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم ﴾ لم تترك شيئاً إلا دمرته رجالاً ونساء كباراً وصغاراً ، ومتاعهم ومواشيهم لأن الريح مأمورة تدمر ما أمرها الله بتدميره إلا أن مساكنهم منعت الريح من تدميرها لتبقى لمن بعدهم عبرة وعظة لمن يناصبون العداء رسلهم الذين يرسلهم إليهم الله لهدايتهم من العذاب لاحول ولاقوة إلا بالله . باتوا فرحين بالخير الذى سيأتى به المطر تحمله لهم الريح فأصبحوا فى العذاب الأليم ، حقاً إن الانسان لكفور : ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ أى بهذا العذاب الذى جاءهم فى البشرى أو بعذاب آخر نجازيهم بكفرهم وإجرامهم فى حق المرسلين : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾ وهذه الآية من بلاغة القرآن العظيم وكل آيات القرآن بلاغة هل هى من كلام بشر كما قالوا : إنما يعلمه بشر سبحانك هذا بهتان عظيم . ولقد مكناهم فيما لم نمكنكم فيه من القوة والعلم والمتاع والمال والبنين .

ما كان عليه قوم عاد من القوة :

﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ أقوى من أسماعكم وأبصاركم وأفئدتكم وهذه الحواس التى جعلها الله ليسمعوا الأوامر والنواهى التى يلقيها عليهم رسولهم وأن يبصروا عاقبة الكفر .. ومنحهم عقولاً يجب أن يفكروا بها بأن الله لم يرسل الرسل عبثاً وإنما لهدايتهم : ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولاأبصارهم ولاأفئدتهم من شئ ﴾ فكل الحواس التى وهب الله إياهم لم يستعملوها فى ما ينفعهم لافى الدنيا ولافى الآخرة بل استعملوها فى معاندة رسلهم التى جاءتهم بالريح العقيم فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة : ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ لأنهم كانوا يكفرون بما يتلوه عليهم رسولهم مما يوحى إليه من أوامر ونواه ولذلك أحاط بهم العذاب الذى كانوا به يستهزئون بقولهم : ﴿ فأتنا بم تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

بحث عن عبادة الأصنام :

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾ تعود قصة سيدنا هود عليه السلام مع قومه على نسق آخر إنه أخوهم من قبيلتهم وهو يتودد إليهم ويسوق إليهم النصيحة ، فهو لايغشهم ولايكذب عليهم ، لأنه أخوهم يريد لهم الخير ويطالبهم بعبادة الله وحده التى تمسك بها قوم نوح عليه السلام الذين نجوا معه فى السفينة : إن أنتم إلا مفترون بعبادتكم غير الله التى زينها لكم الشيطان ، وهل هذه الأصنام أى الأحجار قد قطعت عشوائياً من الجبل كلا إنما هى أحجار نحتت على صور أناس صالحين ليتذكروا عبادتهم ويسلكوا نهجهم ، ولكن بمرور الوقت والزمن وضعف الإيمان وقلة الواعظين والناهين عن المنكر ، عبدوهم من دون الله ، أى دعوهم من دون الله لأن الدعاء هو العبادة مثل قوله تعالى : ﴿ ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وكما يقول رسول صلى الله عليه وسلم : « الدعاء هو العبادة » فبنوا لهم المقاصير والتوابيت وطافوا حولها كما يطوف الحجيج بالكعبة وقدموا لهم النذور وطلبوا منهم ما لا يطلب إلا من الله ورقص الشيطان فرحاً إذ أبعدهم عن عبادة الله وزين لهم هذه الأعمال فظنوا أنها من الإسلام ، وكانت هذه الأصنام كما ذكرها الله فى القرآن - وداً - وسواعاً - ويغوث - ويعوق - ونسراً وفى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه وجد المسلمين يكثرون من الجلوس والصلاة عند شجرة البيعة الرضوانية اى بيعة الرضوان التى بويع تحتها الرسول صلى الله عليه وسلم لمحاربة قريش بسبب دعاية بأنهم قتلوا عثمان بن عفان رضى الله عنه - وخلدها القرآن الكريم : ﴿ إن الذين يبايعونك تحت الشجرة إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ﴾ فماذا كان من عمر بن الخطاب - قطع الشجرة - ما هذه الجرأة يا ابن الخطاب تقطع شجرة بويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلدها القرآن الكريم ولماذا ؟ وأى جريمة ارتكبت عند الشجرة حتى تُقطع لاشئ إلا أنه وجد المسلمين يكثرون من الصلاة عندها والجلوس تحت ظلها حنيناً للذكرى وصاحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس عمر بن الخطاب هو القائل - يوشك أن يهدم الإسلام حجراً من جهل عادات الجاهلية - وهو القائل إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية - أى من لم يعرف الجاهلية سقط فيها حتى وإن ادعى الإسلام . الجاهلية الأولى عبدت الأشجار - ألم تكن العزى معبودة الجاهلية

---

(١) الدعاء هو العبادة » حديث صحيح رواه عن النعمان بن بشير الترمذى

شجرة عكفوا عندها وجعلوا لها النقباء وقدموا لها الذبائح والنذور ؟ ألم يكن اللات كما قال ابن عباس رضى الله عنهما رجلاً صالحاً يصنع الطعام للحجاج فلما مات عكفوا على قبره ودعوه من دون الله ؟ ألم يكن ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر هى معبودات الجاهلية الأولى ، ألم تكن كل هذه أسماء رجال صالحين اتجه إليها الناس بغواية الشيطان فسقطوا فى الجاهلية ؟ من أجل هذا قطع عمر بن الخطاب شجرة البيعة . لقد خشى عمر أن يأتى جيل يصلى عندها حنيناً للذكرى وصاحبها والقلوب مملوءة بالإيمان والتوحيد ، ثم يأتى جيل آخر يعكف عندها تبركاً وقد بدأ التوحيد تفتر قوته ويأتى جيل آخر فيضع فوقها الأستار ويأتى جيل آخر يطوف حولها ويتمسح بها ويقدم لها النذور والذبائح فيختفى التوحيد وتعبد الشجرة من دون الله ؟

وقد بدأ الأمر بمجرد الحنين والذكرى من أجل هذا قطع عمر الشجرة لأن البيعة كانت تحت الشجرة لأجل التوحيد الذى خشى عمر أن يضيع تحت الشجرة - ماذا يقولون عنك ؟ عبدت تابوت الرفاعى ؟ ماذا كانوا يقولون عنك ؟ عبدت المقاصير والتوابيت والأضرحة ؟ ماذا كانوا يقولون عنك أصحاب عجل السيد ومدد الرفاعى وبركات السيدة ؟ سيقولون لقد صبأت يا ابن الخطاب أو يقولون عنك إنك تكره الأنبياء والأولياء والصالحين وآثارهم أى أقوالهم وأعمالهم مع أنك من أكابر الأولياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان نبى بعدى لكان عمر بن الخطاب » أو لقالوا عنك وهابى مذهب خامس .. معذرة أيها القارئ الكريم فقد جمح القلم فى هذا الموضوع الخطير الذى سقط فيه المسلمون أصبحوا فى جاهلية أشد وأنكى من الجاهلية الأولى .

حوار بين هود وقومه :

﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ﴾ يخاطبكم هود عليه السلام باللين والقربى يا قوم أنا أدعوكم إلى عبادة الله وحده ولا أسألكم على قيامى بدعوتكم إلى النجاة أجراً إنما أجرى على الذى أرسلنى ، وأقوم بتبليغ رسالته أليست لكم عقول تعقلون بها ما جرى لمن كان قبلكم من قوم نوح وقد أهلكهم الله بالطوفان ، ولم ينج منهم إلا الذين آمنوا برسالته : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ يطلب منهم نبيهم هود عليه السلام أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه مما صدر منهم من عبادة غير الله ليرسل السماء عليهم بالمطر رحمة منه لأنهم كانوا أصحاب مزارع وبساتين وقد أصابهم الجدب فقد حبس الله عنهم المطر حتى أوشكوا على الهلاك

حتى جاءهم الهلاك فى صورة ريح وقالوا هذا عارض ممطرنا أى هى ريح الخير العميم بل به .. العذاب الأليم : ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ أى قوة إلى قوتكم وعزا إلى عزكم ومالاً إلى مالكم ولا تنقادوا إلى المجرمين من كبرائكم الذين يصدونكم عن عبادة الله واتباع رسله ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ قالوا يا هود ما جئتنا بمعجزة ظاهرة ولسنا بتاركين آلهتنا لقولك ولسنا مؤمنين إنما تدعى ﴿ أم نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ أى الذى به هو ما أصابك من آلهتنا التى تسبها وتأمرنا بتركها .

هود يتبرأ من قومه :

﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون ﴾ وبدأت القطيعة التى لا رجعة فيها ووجه إليهم هود عليه السلام قذيفة الإنذار بأنه برئ من هذه الأصنام التى تدعونها من دون الله وتؤمنون بها وتكذبون برب العالمين ﴿ من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون ﴾إنه الإيمان القوى الواثق بنصر الله يقف هود بمفرده أمام هؤلاء الطغاة البغاة بكل ما لديهم من قوة وشدة وبأس يتحداهم بأن يجابهوه هم وآلهتهم التى يعبدونها ويطالبهم بالهجوم عليه مع كثرتهم وهو بمفرده وأن لايحددوا له يوماً للمعركة ليجهز نفسه : ﴿ إنى توكلت على ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾ ما سر هذه القوة من فرد واحد فى مواجهة الألوف المؤلفة من قومه الكافرين ؟ السر هو التوكل على الله والاعتماد عليه والثقة فى نصره :هو ربى وربكم خالقى وخالقكم ربانى ورباكم بنعمه التى لاتعد ولاتحصى ، لأن كل شئ فى الأرض من مخلوقات تدب على هذه الأرض إلا ناصيتها بيد الله ولن يستطيع الباطل أن يغلب الحق مهما كثر أعوانه وأتباعه ما دام أهل الحق معتمدين على الله ومتوكلين عليه ، فسنة الله دائماً تسير على صراط مستقيم فلا بد من هلاك الظالمين ونصر المؤمنين : ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ أى فإن أعرضتم فقد أبلغتكم إنذار الله لكم ، ويبين لهم بأن العذاب سيحيق بهم ويكشف عن السر الذى يرهبهم بأنه سيتم إفناؤهم جميعاً عن بكرة أبيهم وسيستخلف ربى على هذه الأرض قوماً غيركم يوحدونه ويعبدونه ولايشركون به شيئاً : ﴿ ويستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً ﴾ بتوليكم وإعراضكم وأن الله سينصر أولياءه وأنصاره وسيخذل أعداءه ويحفظ دينه .

نجاة هود وهلاك قومه :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ وصدرت الإرادة الإلهية بنزول العذاب ونجينا هودا والذين آمنوا معه صدقوا بكل ما جاء به برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وقد روى مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم : لن ينجو أحد منكم بعمله - قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته لأن عمل الإنسان مهما كان صالحاً لايكفى أن ينجيه إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ أى أن قوم عاد كذبوا المعجزات التى جاءهم بها رسولهم وعصوا رسله فى شخص نبيهم هود ، لأن الذى يعصى رسولاً واحداً فكأنما عصى رسل الله جميعاً وساروا على نهج كبرائهم واتبعوا كل ما يأمرونهم به من باطل وذلك خوفاً من جبروتهم وسلطانهم : ﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ فعليهم اللعنة فى هذه الدنيا كما لعن من قبلهم من خالفوا رسلهم وعليهم اللعنة الكبرى يوم القيامة : ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ أى أن عادا كفروا بنعمة الله وعادوا رسوله وكذبوا المعجزات فلا يستحقون بعد ذلك إلا البعد والطرد من رحمة الله ؟؟.

وحوار آخر مع هود وقومه :

وجاء كذلك فى سورة الأعراف الآية ٦٥ : ٧٢ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ وهذه مواجهة أخرى بين هود وقومه ولا زالت سلسلة الرسالات متصلة الحلقات لاتنقطع ما دام هناك كفر وطغيان وجاهلية وعبادة غير الله ، وقوم عاد هم من ذرية الذين نجوا فى السفينة مع نوح عليه السلام ولما طال عليهم العهد ودخل عليهم الشيطان من طريق التملك والسلطة وحب المال والاستعلاء وسول لهم الشيطان عبادة غير الله أرسل الله إليهم هودا عليه السلام وهو منهم ومن أوسطهم حسباً وأفضلهم نسباً والله سبحانه وتعالى لايختار أنبياءه ورسله إلا من أطيب الأصلاب وأطهر الأرحام ولو اختار غير ذلك لطعنوا فى شرفه قال اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون ؟ وتلك دعوة الرسل جميعاً إلى أقوامهم بعبادة الله وحده وهى كلمة التوحيد التى عليها مدار الحياة السعيدة فى الدنيا والآخرة أفلا تتقون ؟ أى أفلا تخافون من عقابه وقد سبقكم قوم نوح وذاقوا عذاب الطوفان وأغرقوا جميعاً ولم ينج منهم إلا من آمن بنوح عليه السلام ،

وعليكم أن تتعظوا بما حاق بأسلافكم : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ وهكذا دائما لكل نبى أعداء وقال له كبراء القوم الذين لا يطيقون أن يروا رجلاً منهم يدعوهم إلى شئ غريب عنهم ، وهو أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ويتجهوا إلى عبادة الله وحده قالوا إنا لنراك فى سفاهة أى قلة عقل ، ولب طائش هكذا يتهمون نبيهم بأنه لاعقل له لأنه يدعوهم لترك ما هم عليه عاكفون ، وأنه كذاب فيما يدعيه من نبوة ورسالة قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين : ﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ويرد عليهم هود عليه السلام : ياقوم يا أهلى يا عشيرتى لست عديم عقل ولا ردئ رأى وإنما أنا مرسل إليكم من رب العالمين لأبلغكم ما يريده الله منكم وهو أن تعبدوه وحده وأخو القوم لايضلهم ولايكذب عليهم إنما هو ناصح لهم وأمين لا أغير ولا أبدل فيما يوحيه الله إلى : ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ وهل تتعجبون عندما جاءكم وحى من ربكم على رجل منكم ومن أوسطكم وأقربكم لينذركم بأس ربكم : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾

أى اذكروا أن الله جعلكم على هذه الأرض بأن تعمروها بالإيمان والتقوى وعبادة الله وتشكروا نعم الله عليكم إذ زادكم فى الخلق قوة طولا وعرضا وأموالا ولأجل أن تخلفوا أجدادكم بالخير والبركات وفلا حكم فى الدنيا والآخرة : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ وقد زادت النبرة حدة .قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده - سبحان الله أليس الله بكاف عبده - ونترك ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تخوفنا به إن كنت من الصادقين فى إنذارك لنا : ﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ أى حكم الله عليكم ووجب تنفيذه : ﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ﴾ أى تجادلوننى فى أصنام تعبدونها من دون الله وسميتموها بأسماء بأنها شافعة وأنها نافعة تضر من يريدها بسوء وتنفع عابديها ليس فيها حجة ولابرهان من الله : ﴿ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ وبدأ ترقب الكافرين العذاب وترقب المؤمنين النجاة : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وجاءت ساعة الحسم وتم فصل الفريقين فريق نجا برحمة الله وفريق تم هلاكهم وهى سنة الله التى لاتتبدل ولا تتغير فهى بالمرصاد لكل ظالم طاغ يجحد نعم الله ويكفر بها .

وفى سورة الشعراء يقول تعالى من الآية ١٢٣ : ١٤٠ ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ وهكذا موقف آخر مع هود عليه السلام وقومه عاد وقد تقدم فى سورة الأعراف وهود والأحقاف وهو أن قوم عاد لم يكن لهم رسل عدة إنما كان لهم رسول واحد وهو هود عليه السلام ، وكل قوم يكذبون رسولهم فكأنهم كذبوا الرسل جميعا وكل قوم يصدقون رسولهم ويؤمنون به فيكونون قد صدقوا الرسل جميعا : ﴿ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ﴾

ولابد من أن هوداً عليه السلام قد خاطبهم مرات عديدة مرة يقول لهم اعبدوا الله وحده ومرة ينذرهم من غضب الله عليهم والقرآن الكريم تارة يرفع الستار عن قوم ليسدله عن آخرين لتكون المشاهد مؤثرة فى نفس القارئ : ﴿ إنى لكم رسول أمين ﴾ لا أكذبكم ولا أضلكم لأنكم أهلى وعشيرتى أحب لكم الخير والرشاد : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فاتقوا الله برضاه عن غضبه وأطيعونى فيما أبلغكم به من الله : ﴿ وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ وأنا لا أسألكم على ذلك أجرا إنما أنا مكلف من الله لهدايتكم ، وإنما أجرى على الذى أرسلنى لأن أجر الرسول على المرسل سبحانه وتعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ وتبنون بكل مكان مبانى ضخمة شاهقة لتظهروا براعتكم وفنكم علامة على كثرة أموالكم التى منحها الله لكم .. تعبثون بها وتنفقونها فى البذخ والرياء : ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ أى حصونا تحميكم من عوامل الطبيعة وتحميكم كذلك من الأعداء وتظنون كذلك بأنها تحميكم من غضب الله إذا نزل بكم ، وتظنون بأن هذه المبانى المرتفعة والحصون الضخمة وتلك الحضارة الواسعة التى تشيدونها تبقيكم على هذه الأرض خالدين فيها : ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ أى إذا ضربتم ضربتم ظالمين معتدين وتعتزون بقوتكم التى منحها الله لكم لتستعملوها فى مرضاة الله ، وأطيعونى فيما أرسلت به إليكم من ربكم: ﴿ واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ﴾ أى ما ترونه من النعيم والخيرات : ﴿ أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون ﴾ بأنعام سخرها لكم وذرية هى زهرة الحياة الدنيا وزروع وجنات لكم فيها ما تشتهون ﴾ وأنزلنا لكم من السماء ماء لتسقوا حرثكم وأنعامكم وتشربوا ماء زلالا فيجب عليكم أن تشكروا هذه النعمة بدلا من أن تكفروا بها : ﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ بكفركم بنعم الله وتكذيبكم برسالته : ﴿ قالوا سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ إنه النكران والجحود بنعم الله والرد غير الطبيعى لمن يريد هدايتهم : أوعظتنا أم لم تعظنا فإنا على ما نحن عليه مما وجدنا عليه آباءنا لا نؤمن بك ولانسمع لقولك ..رد كله استهزاء وغرور ولاخوف من مكر الله فقد

نسوا الله فأنساهم أنفسهم : ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ أى حكايات الأولين وخلق المتقدمين : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ فقد غرهم الشيطان بأنهم من الناجين : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ بما أنذرهم به عذاب الله ، وعندما قالوا : « وما نحن بمعذبين » جاءهم العذاب الذى لايبقى ولايذر فأهلكناهم أى بالريح العقيم ، وذلك قضاء الله فى الظالمين ولا راد لقضائه إن فى هلاكهم لآية عبرة لمن يعتبر ويعود إلى الله وما كان أكثرهم مؤمنين

وهذا معلوم بالضرورة فإن اتباع الرسل دائما أقلية وقليل من عبادى الشكور وقليل ما هم - ودائما الأكثرية على الباطل وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ عزيز يذل الظالمين بعزته ويرحم المؤمنين برحمته .

وجاء فى سورة فصلت الآية ١٥ قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ﴾ والاستكبار ظلم وبغى وعناد وتذكروا قوتهم التى وهبها الله لهم ونسوا قوة الله وكل قوة فى الأرض أو فى السماء مستمدة من قوته سبحانه وتعالى صاحب القوة اللانهائية ، أما قوة العباد فهى قوة محدودة : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد قوة ﴾ وكلمة أو لم يروا أى خلق السموات والأرض : ﴿ وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أى بمعجزاتنا وإنذاراتنا يكذبون : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات ﴾ أى ريحاً سريعة الهبوب شديدة البرودة ثمانية أيام بلياليها كلها نحس وهموم : ﴿ لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ﴾ وعذاب الآخرة أشد وأبقى لأنه لاينقطع ولن تستطيع أصنامهم التى دعوها من دون الله أن تنصرهم .

* * *

حوار آخر بين هود وقومه

وفى سورة الحاقة الآية ٦ : ٨ يقول تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ والصرصر هى الريح الشديدة البرودة مزمجرة الصوت عاتية فقهرت عتوهم : ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ سخرها أى سلطها عليهم بأمر مقدر حسوما لاتفتر ولا تنقطع وهى حاسمة لاتبقى ولاتذر : ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾ أى قوم عاد الذين كفروا فى هذه الأيام والليالى صرعى أى موتى كأنهم جذوع نخل خاوية متآكل جوفها فهل ترى لهم من باقية بعد تلك العاصفة

المدمرة ونحن نراهم فى هذه الآيات رأى العين هلكى كما نرى القتلى على شاشة التلفاز ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : « فهل ترى لهم من باقية » على قيد الحياة وتلك سنة الله فى كل زمان ومكان فى هلاك الكافرين المكذبين ونجاة المؤمنين المصدقين ولكل أجل كتاب ، والقاعدة هى أن الله ينصر الأمة العادلة وإن كانت كافرة ويهلك الأمة الظالمة وإن كانت مسلمة .

نهاية قوم هود

وكذلك جاء فى سورة الذاريات الآية ٤١ : ٤٢ قوله تعالى : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ وفى عاد آية كونية لمن يريد أن يعقل إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم التى لاتبقى ولا تذر وهى مسخرة بأمر ربها عقيم لاماء فيها ولابركة ولارحمة إنما فيها العذاب الأليم والريح جند من جنود الرحمن يسلطها على من يشاء من عباده المتكبرين : ﴿ ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ أى كالهشيم البالى الذى ليس فيه منفعة .

وجاء كذلك فى سورة القمر الآية ١٨ : ٢١ قوله تعالى : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ﴾ لقطات لقطة بعد أخرى لتجذب القارئ للانتباه هل رأيتم كيف كان عذابى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ﴾ فأجمل الأيام الثمانية فى يوم : ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ أى تطوح بهم فى الهواء ثم تلقيهم حتى لتراهم كأنهم جذوع نخل ملقاة على الأرض : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ فكيف فعلنا بهم بعد الإنذار الذى أنذرهم به نبيهم هود عليه السلام .

عظمة مدينة عاد

وكذلك جاء فى سورة الفجر الآية ٦ : ٨ قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ الخطاب موجه إلى رسول الله عليه وسلم :ألم تر كيف فعل ربك بعاد لأن القصة مشاهدة ملموسة كان الإنسان يراها أمام عينيه ، ومدن وقرى عاد معروفة لأهل جزيرة العرب فهى على مشارف جزيرتهم فى الجنوب فى طريقهم إلى اليمن وحضر موت : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فهم كانوا يبنون أبنية على أعمدة وإرم مدينة قائمة على أعمدة وسماها الله ذات العماد : ﴿ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ أى هذه المدينة التى تسمى إرم المقامة على أعمدة لم يخلق مثلها أى لم يوجد مثلها فى البلاد وذلك على عهدهم .

صالـــح

عليه السلام

مقدمة القصة :

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الأعراف الآية ٧٣ - ٧٩ :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى أن لا يترك قوماً بدون أن يرسل لهم رسولاً منهم يبلغهم رسالات الله وأن يكون هذا الرسول من أفضلهم أخلاقاً وأقواهم صبراً وأعلاهم همة وأصدقهم حديثاً ، وأن يكون من أوسطهم يعرفونه وينطق بلسانهم طاهر الذيل حتى لا يستطيعوا أن يتهموه بأية نقيصة أو بأية رذيلة ، وقد أرسل الله هوداً عليه السلام إلى قومه عاد ودعاهم بدعوة جميع الأنبياء من قبله ومن بعده وهى دعوة التوحيد بأن يعبدوا الله وحده ، وأنذرهم عاقبة صدهم وبغيهم وظلمهم واعتمادهم على قوتهم ، فأهلكهم الله إذ أرسل عليهم الريح العقيم التى قطعت دابرهم ونجى الله هوداً عليه السلام والذين آمنوا معه ، ومع مرور الزمن انساقوا وراء شهواتهم ونسوا فضل الله عليهم إذ نجاهم من عذاب أليم ، فأرسل الله لهم أخاهم صالحاً : ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ فالرسول أدرى بما يحيق بقومه من العذاب إذا خالفوا أمره ولذلك يقول لهم : يا قوم ، وهى كلمة ترقق القلوب القاسية وتلين قوتها وتجعلهم يفكرون بعقول واعية ، فهو يطالبهم بما يوافق الفطرة السليمة وهى عبادة الله وحده وقد أرسل الله لهم بينة أى علامة على صدقه بأنه مرسل من عند الله .

معجزة صالح لقومه :

﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ أى معجزة ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ فقد أخرج الله لهم ناقة من صخرة عظيمة وخلفها فصيلها وذلك على غير العادة ثم إنه أضافها إليه سبحانه وتعالى لعلو شأنها وأمرهم رسولهم صالح عليه السلام بتركها تأكل فى أرض الله فهى ناقة الله والأرض أرض الله والكلأ ينبته الله وحذرهم أن لا يمسوها بسوء وإلا العذاب الأليم فسلامتهم فى سلامتها هى وفصيلها .

صالح يذكر قومه بنعم الله عليهم :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ أى تذكروا أن الله جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴿ وبوأكم فى الأرض ﴾ أى ومكنكم فى إعمارها ﴿ تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ﴾ أى تتخذون القصور على الأرض المنبسطة والمزروعة بأنواع المحاصيل والحدائق وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين صيفاً وتنحتون الجبال بيوتاً للشتاء وهذا مما يدل على تقدمهم فى مجال

النحت وتفننهم في العمران والحضارة بما لديهم من مال وقوة وخبرة :
﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ أى اذكروا الله على هذه النعم التى يغمركم الله بها ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ أى ولا تنشروا الفساد فى الأرض ببغيكم وكفركم :
﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ﴾ .

وبدأت المباحثات السرية بين المستكبرين المعاندين وبين القلة المؤمنة المستضعفة التى آمنت بصالح عليه السلام ، وسلمت أمرها لله كيف علمتم بأن صالحا مرسل من ربه ؟ وفى الجملة ذاتها تهديد مغلف باستفهام أى ما يدريكم أيها الفقراء الجهلاء ، يا عديمى المعرفة و ساقطى الرأى بأن صالحا مرسل من ربه ولو كان مرسلا من ربه حقاً ما سبقتمونا إليه فنحن أعقل وأذكى منكم : ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ فنحن مؤمنون بما أرسل به ومصدقون بما يقوله ونحن موقنون بأن دعوته حق .. الله أكبر . رد مقنع لا رجعة فيه لأن القلة المؤمنة بالله لا تخشى الكثرة الكافرة مهما اغترت بقوتها . فماذا كان رد المتكبرين المتسلطين على رقاب الضعفاء ؟! ﴿ قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾ فنحن أصحاب الجاه والسلطان والمال بالذى آمنتم به كافرون . رد باطل على سؤال حق هل تعلمون بأن صالحا مرسل من ربه ؟ نعم هو مرسل من ربه فماذا كان رد فعل الباطل على كلمة الحق ؟

نهاية ناقة صالح :

﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ فعقروا الناقة بغيا وعدوانا ، الناقة التى كانت سلامتهم فى سلامتها ماذا عليهم لو تركوها وتجنبوا العذاب الأليم ؟ عقروا الناقة التى كانت الباب الحاجز عنهم العذاب ولكن غلبت عليهم شقوتهم ففتحوا على أنفسهم باب العذاب فعقروها وهددوا وتبجحوا وغرتهم قوتهم وسلطانهم وطلبوا من نبيهم صالح عليه السلام استعجال العذاب الذى وعدهم به إن اعتدوا على الناقة وهؤلاء هم قد اعتدوا عليها فليأتهم بما وعدهم إن كان من الصادقين .

نهاية قوم صالح :

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ الرجفة أى الزلزال الشديد الذى خلع قلوبهم من شدته فربما يكون بدرجة خمس عشرة بمقياس ريختر فأصبحوا منكبين على وجوههم كل فى داره وفى كل مكان كانوا فيه :
﴿ فتول عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون

الناصحين ﴾ والرجفة لم تمس صالحا ولا الذين آمنوا معه وعندما رأى حالهم بعد الرجفة وقد ماتوا جميعاً تذكر ما كان بينه وبينهم قبل نزول العذاب فشاح بوجهه بعيداً وقال : يا قوم لقد أبلغتكم إنذار ربى ونصحت لكم بأن تؤمنوا بى وبمعجزة الناقة ولكنكم لا تحبون الناصحين .

حوار بين صالح وقومه :

وفى سورة هود الآية ٦١ ـ ٦٨ يقول تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ هذه الدعوة التى يبدأ بها الرسل إلى أقوامهم من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وهى كلمة التوحيد التى عليها سعادة الدنيا والآخرة ، وقد أرسل الله إلى ثمود وهم أمة خلقت واستخلفت بعد قوم عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم عندما نابذوا نبيهم بالعصيان وعدم الإيمان فأرسل الله من بعدهم إلى ثمود أخاهم صالحاً عليه السلام ، وتلك مواجهة أخرى بين صالح وقومه وبدأ دعوته مثل إخوته بكلمة التوحيد : اعبدوا الله فليس لكم إله غيره ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ أى خلقكم من الأرض نسبة إلى أبيهم آدم عليه السلام ، والإنسان جسد وروح ولكل منهما غذاء خاص فالجسد غذاؤه مما تنبت الأرض والروح غذاؤها مما يأتى على يد الأنبياء من وحى وتشريع ، ولذلك إذا مات الإنسان يذهب الجسد إلى الأرض مكان غذائه وتصعد الروح إلى السماء مكان غذائها ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أى لتقوموا بعمارتها وفق منهج الله بالإصلاح لا بالفساد وبالخير لا بالشر وبالعدل لا بالباطل : ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾ .

يطلب منهم نبيهم صالح بأن يستغفروا الله على ما ارتكبوه من عبادة غير الله وظلمهم للمستضعفين واعتمادهم على قوتهم، وأن يتوبوا إليه توبة نصوحاً على أن لا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا بعبادته أحدا ، ويعلموا بأن ما بهم من علم وقوة ومال هو من عند الله لنظر كيف تعلمون فى هذه النعم ، وإن ربى قريب يسمع استغفاركم ويجيب دعاءكم : ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أى كنت مقبولاً بيننا نستشيرك فى كثير من الأمور لرجاحة عقلك قبل هذه الدعوة المريبة التى جئتنا بها ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ تطلب منا أن نترك ما كان يعبد آباؤنا فقد خاب فيك رجاؤنا ﴿ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ أى وإننا نشك فى دعوتك هذه ومريب أى ربنا قولك ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ﴾ طلب منهم التفكير السليم بأنى على معرفة من ربى وآتانى منه رحمه أى أعطانى النبوة والرسالة رحمة لقومه : ﴿ فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير

تخسير ﴾ أى من ينصرنى من الله إن أنا تقاعست عن أمره ولم أبلغ رسالته فما تزيدوننى لذلك إلا تخسيرا : ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء ﴾ درس آخر وموعظة أخرى لعلهم يرجعون عن بغيهم قال : يا قوم إن كنتم فى ريب وشك من أنى رسول الله إليكم فهذه ناقة الله لكم آية أى معجزة فى إخراجها هى وفصيلها من الصخرة وهى تختلف عن جميع النياق فى هيئتها ولونها ثم إن لها يوماً تشرب فيه الماء لا يشاركها فيه أحد من إنس أو حيوان أو نبات ، وستمتنع عن الشرب فى اليوم التالى لتشربوا أنتم ومواشيكم وزروعكم ، ففى إرسال الناقة معجزات لا معجزة واحدة ، إخراجها من الصخرة وفصليها ، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء وهو إنذار أى اتركوها تأكل من نبات الأرض ، وإنذار آخر لا تمسوها بسوء ولم يقل ولا تضربوها أو ولا تنفروها بل قال ولا تمسوها بسوء أى الاعتداء عليها بسوء يكون سببا فى نزول العذاب ﴿ فيأخذكم عذاب قريب ﴾ أى فى الاعتداء عليها مباشرة ﴿ فعقروها ﴾ أى ضربوا قوائمها بالسيف فسقطت وفر فصيلها إلى الصخرة فدخل فيها وانطبقت عليه : ﴿ فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ أى انتظروا فى دوركم وبيوتكم ثلاثة أيام وانتظار العذاب عذاب وبعدها يكون العذاب الذى يختاره الله لتعذيبكم به وهذا الوعد مصدق عليه من الله ليس فيه كذب بل ولا تأخير :

﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أى بنزول العذاب ﴿ نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ وقلنا : إن الإيمان والعمل الصالح لا يكفى لنجاة الإنسان من العذاب إنما النجاة تكون برحمة من الله ﴿ ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز ﴾ لأن هذا العذاب الذى نزل بقوم صالح عليه السلام وتركهم مكبين على وجوههم هو فى ذاته خزى وأن الله هو القوى الذى لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء العزيز يعز المؤمنين بنصره ويذل الكافرين المعاندين بقوته ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ أى أخذتهم الصيحة أي الصوت المدوى الذى أرجف أبدانهم كما جاء فى سورة هود﴿ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ﴾ وقد مرت عليهم الأيام والسنون كالبرق دخلوا هذه الدنيا عند ولادتهم مؤمنين وخرجوا منها كافرين . كأن لم يقيموا فى هذه الدنيا إلا يوماً واحداً ﴿ ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعد لثمود ﴾ فإن قوم ثمود كفروا بالله فكان كفرهم سبب بعدهم من رحمة الله .

ولا زال الستار مكشوفاً على قصة سيدنا صالح وقومه وما يدور بينهما .

صالح يعدد نعم الله على قومه :

ففي سورة الشعراء الآية ١٤١ - ١٥٩ يقول تعالى : ﴿ كذبت ثمود المرسلين .. ﴾ وكما قلنا من قبل : إن القوم الذين يؤمنون برسولهم فهم يؤمنون بجميع الرسل والذين يكفرون برسولهم المرسل إليهم من الله فهم يكفرون بجميع الرسل : ﴿ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ﴾ وكانت ثمود تسكن في أماكن رملية تسمى الحجر بين الشام والحجاز يقول لهم أخوهم صالح ودائما الرسل - تبعث في أقوامهم - ألا تتقون غضب الله برضاء الله ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ في تبليغ رسالة الله إليكم ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ ففي طاعتي طاعة الله ومعصيتي معصية لله ﴿ وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ فالله سبحانه وتعالى يرسل الرسل لهداية الناس وأجرهم على الله لا على الناس فهي رسالة لصالحهم وليس عليهم أجر الداعي ﴿ أتتركون في ما هاهنا آمنين ﴾ يريد أن يوقظ نبيهم حاسة التفكير والاعتبار بمن سبقهم فخالفوا رسولهم فجاءهم العذاب وظنوا بأنهم سيبقون في هذه الحياة الدنيا آمنين مطمئنين برغم مخالفتهم لشرع الله المرسل على يد نبيهم صالح ﴿ في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ أي تمرحون وتفرحون في هذه الجنات وما فيها من ثمرات وينابيع تجرى بالماء الزلال بين زروعكم وخص الله النخل - والنخلة تشبه الرجل المؤمن كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعمها سهل الهضم سريع الذوبان حلو المذاق ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ أي معجبين بغناكم ناعمين مطمئنين لا تبالون مكر الله، إن هذه النعم التي أنعم الله بها عليكم ليبلوكم بها هل تشكرون أم تكفرون ﴿ فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذى يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ ولا تطيعوا أوامر المفسدين الذين يفسدون فطر الناس وعقولهم ويصدونكم عن دعوة الخير تارة بالإغراء وتارة بالبطش شأن المتحكمين في رقاب الناس ظلماً وعدواناً .

ردهم وحوار هادئ بينهما :

﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أي المسحورين الذين ذهبت عقولهم فأنت تهذى ولا تدرى ما تقول : ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ فهم يظنون أن الرسول الذى يبلغهم رسالة الله لا بد أن يكون من غير البشر أى يكون من الملائكة ، والبشر لا يستطيعون رؤية الملائكة فلا بد إذن أن يتشكل الملك في صورة رجل وتصبح الشبهة كما هي ، والعقلاء يستعجلون النعم لا النقم فأتنا بآية أى معجزة أو علامة تدل على أنك مرسل من عند الله إن كنت صادقاً تدعي بأنك مرسل من عند الله ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم

شرب يوم معلوم ﴾ وهل لو جاءت المعجزة يؤمنون ؟ كلا فقد جاءت المعجزات على يد الأنبياء جميعا ومع ذلك كفروا إنما هم يطلبون تعجيزاً لا معجزة وجاءت المعجزة فى صورة ناقة ولننظر هل يؤمنون أو يكفرون بها ، وقد أخبرهم صالح عليه السلام بأن هذه الناقة ستقوم بشرب الماء كله فى يومها وتمتنع عن الشرب فى اليوم الثانى لتشربوا أنتم فلا تعتدى على ماء يومكم ولا أنتم تعتدون على ماء يومها : ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ أى الاعتداء عليها ولو بالمس سيكون سبب هلاككم : ﴿ فعقروها فأصبحوا نادمين ﴾ أى تذكروا الإنذار الذى أنذرهم نبيهم صالح بالعذاب إن مسوها بسوء فكيف وهم عقروها نادمين ولكن بدون الرجوع إلى الله : ﴿ فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية ﴾ أى عبرة لمن يعتبر ويتدبر : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ العزيز الذى يقهر الظالمين بعزته ويرحم المؤمنين برحمته .

وتعود بنا الآيات فى القرآن الكريم إلى موقف آخر مع صالح عليه السلام .

اختلاف قوم صالح حول دعوته :

ففى سورة النمل يقول تعالى فى الآية ٤٥ - ٥٣ ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ فريق آمن وصدق وإن كانوا قلة وفريق كفر وهم الأكثرية ﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لو لا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ رد كله عطف وحنان لماذا تستعجلون العذاب بدلا من أن تطلبوا من الله الهداية والرحمة ، ويطلب منهم أن يستغفروا ربهم عما ارتكبوه من عبادة غير الله لأجل أن يرحمهم : ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾ أى تشاءمنا بوجودك أنت ومن معك بيننا : ﴿ قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾ أى مستقبلكم وحظكم ومصائركم ومصائبكم كلها عند الله بل أنتم تفتنون بما وهب الله لكم من النعم لعلكم تشكرون بدلا من تشاؤمكم بمن آمن بالله : ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ وهؤلاء التسعة هم أكابر القوم الذين بيدهم السلطة والقوة والمال المنهوب من الشعب ، وهم الذين يقومون بنشر الفساد فى الأرض بوسائل إعلامهم المتنوعة بالزنا والرزيلة وقتل الفضيلة والربا والسلب والنهب ، وهم يقننون القوانين واللوائح التى تسهل لهم السرقات من المال العام الذى يجمع من الناس . كضرائب نظير خدمات كاذبة يسكنون الأبراج العالية لينظروا من عل إلى الفقراء سكان الأكشاك والصفيح ولا يقومون بالإصلاح والعدل والخير بين رعيتهم التى حكموها بالانتخابات المزورة : ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ أى أقسموا بالله لنقومن فى الظلام بقتل صالح وأهله أى الذين آمنوا معه عندما تظهر الجريمة وتوجه التهمة إلينا : ﴿ ثم لنقولن لوليه ﴾

أى صاحب الدم : ﴿ ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴾ أى لم نر ولم نعرف من الذى قتلهم وأهلكهم وإنا لصادقون بالقوة والغطرسة : ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾ مكروا ودبروا لقتل صالح وقومه فى الظلام وعين الله لا تنام ومكر الله لتدميرهم وهم لا يشعرون بما يدبر لهم : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ أى انظر يا محمد عاقبة مكرهم وجزاء بغيهم : ﴿ أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ دمار شامل وهلاك لا يبقى ، ولا يذر ، كانوا بالأمس منعمين فرهين آمنين من عذاب الله الذى يأتيهم بغتته بصيحة واحدة يتركون كل ما هم فيه من نعم لم يؤدوا شكرها إلى عذاب مقيم ليس له نهاية : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ أى فى لمح البصر أصبحت بيوتهم خالية من أهلها ليس بها ساكن ولا مقيم وذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم وقتلهم للناقة وطلبهم من نبيهم صالح سرعة مجئ العذاب ، مالهم لو تركوا الناقة لحالها ولم يعتدوا عليها وعاشوا بكفرهم إلى أن تأتيهم آجالهم ولكنه الظلم والكبر ومعادات الأنبياء والصالحين أصحاب دعوة الحق ، ولكن غلبت عليهم شقوتهم فأصبحوا خامدين : ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ أى فى ما أصاب قوم صالح عبرة وموعظة عبرة لمن يعتبر وموعظة لمن يسمع ويعى ويعلم بأن قدرته ـ سبحانه ـ هي الغالبة : ﴿ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ أى الذين آمنوا بصالح وأنه مرسل من عند الله وكانوا فى كل أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم كلها فى دائرة التقوى .

ومشهد آخر :

وفى سورة القمر الآية ٢٣ ـ ٣٢ يقول تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ وثمود هى الأمة التى خلفت أمة عاد فى القوة والتمكين فى الأرض بسعة علومهم ومعارفهم وحضارتهم ، وكانت مدن عاد على مشارف الجزيرة العربية فى الجنوب كما أن ثمود قوم صالح عليه السلام فى شمال الجزيرة العربية : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ أى بالآيات والمعجزات : ﴿ فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر ﴾ وما المانع فى ذلك أن يختار الله شخصا مهيأ لحمل الرسالة فينزل عليه الوحى لهداية قومه إنها الكبرياء والغطرسة ، هل نتبع رجلا يتميز علينا فيأمرنا وينهانا وتكون له السيطرة علينا مع أنه ليس من الأكابر ، ولو سلكنا هذا الأمر واتبعناه نكون قد ضلت عقولنا وذهب صوابنا وأصبحنا فى عداد المجانين : ﴿ أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾ أى خص بالرسالة من بيننا وفينا من هو أكثر مالا وأحسن حالا ، وهلا جاءت الرسالة لرجل غير صالح كثير المال والبنين وذى كلمة مسموعة ؟ هل سيتبعونه أم هى نفس الشبهة ؟ وسيقولون له ألقى الذكر عليه من بيننا إنما هي الغطرسة

وعمى القلوب ، إنما هو كذاب فى ادعاء النبوة ، إنما يريد أن يتعاظم وتكون له المكانة العليا بيننا : أشر أى شديد الطمع فى جلب المنفعة لنفسه : ﴿ سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ﴾ أى سيعلمون ويتحققون عند نزول العذاب : من الكذاب الأشر ؟ هل هو صالح أم هم الذين يكذبون بالمعجزات والإنذارات : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴾ أى نخرجها لهم من الصخرة العظيمة اختبارا لهم هل يؤمنون بها أم يكفرون واصطبر على أذاهم وبغيهم إلى أن يأتيهم العذاب : ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ﴾ أى بين الناقة وبينهم : ﴿ كل شرب محتضر ﴾ فيوم لشرب الناقة خاصة وأن لا يقربوا ناحية الماء ويوم لشربهم هم ومواشيهم وزروعهم خاصة لا تقر بهم الناقة بمعنى :الناقة لا تعتدى على يومهم ولا هم يعتدون على يوم الناقة قسمة عدل من أعدل العادلين ، ولكن أين العقول التى تعى وتتحاشى العذاب ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ تعاطى الأجر ليقوم بعقر الناقة ويظهر بأنه قصاب أى جزار أو تعاطى الخمر ليصبح لا عقل له فيصير كالمجنون فى فعله : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ أى كيف دبرنا وقدرنا العذاب والإنذار قبل نزول العذاب : عذاب فى حد ذاته ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ فأصبحوا مثل الشجرة والزرع المهشم الذى داسته الأقدام .

استحباب قوم صالح العمى على الهدى :

وما زلنا فى موكب الدعوة مع صالح عليه السلام وقومه :

ففى سورة فصلت الآية ١٧ - ١٨ يقول تعالى : ﴿ فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أى هديناهم الهداية العامة وهى هداية العقول والفطرة السليمة ، فلو ترك العقل سليما ولم يشوهوه بالكفر والضلال فسيعرف الكل أن الله واحد من تلقاء نفسه بتوجيه العقل السليم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يولد المولود على الفطرة وأبوه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ولم يقل أو يؤسلمانه لأن الإسلام دين الفطرة وتأتى بعد ذلك الهداية الخاصة ، وهى اتباع الشرائع المنزلة على الأنبياء والرسل فاختاروا الضلال والعمى على الهدى العام والخاص : ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ أى أهلكتهم الصاعقة والصاعقة عذاب زائد عن عذاب الهوان فلا ملك ولا سلطان أنقذهم ولا آلهتهم التى كانوا يدعونهم من دون الله لنصرتهم: ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ نجيناهم بإيمانهم وتقواهم فى هذه الحياة الدنيا وقد جاء فى سورة الشمس الآية ١١ - ١٥ قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود

بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ أي بظلمها وشقائها وقد قام أشقى القوم بجريمته بهمة ونشاط فقال لهم نبيهم صالح عليه السلام ناقة الله وسقياها - أي يوم شربها - أضافها إليه سبحانه لأنها معجزة وسقياها كذلك معجزة فهي تشرب الماء كله : ﴿ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ فكذبوا صالحا في رسالته من ربه وكذبوا معجزته الناقة بل عقروها في تبجح واستهزاء برسل الله ومعجزاته فكان ذلك سبب غضب الله عليهم فسوى عليهم مدنهم وقراهم وهكذا عاقبة الظالمين .

وأصحاب الحجر من هم ؟ جاء كذلك في سورة الحجر الآية ٨٠ - ٨٤ قوله تعالى : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ وأصحاب الحجر هم قوم ثمود ، والحجر تقع بين الحجاز والشام أي بين مكة وتبوك وهم قوم صالح عليه السلام ، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها - أي بئر ثمود - فقالوا قد عجبنا واستقينا فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهريقوا الماء وأن يطرحو ذلك العجين ، وفي رواية أخرى أن يعلفوا الإبل العجين وفي رواية ثالثة لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا من أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم زجر وأسرع ، زجر ناقته وأسرع - وتكذيب المرسلين تكذيب لصالح وتكذيب صالح تكذيب للمرسلين ولابد أن تكون هناك آيات غير الناقة .

نعم الله على أصحاب الحجر :

﴿ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ يعرضون عنها ويشيحون بوجوههم عن ما ينفعهم ، وربما تكون هذه الآيات آيات كونية فمرور الأيام والليالي آية والشمس والقمر ، آية الليل والنهار وحياتهم على هذه الأرض ثم موتهم آية ، وإنبات النبات ثم جعله هشيما آية ، والبرق والرعد والسحاب آية ، ونزول المطر من السماء آية ، وتسخير الحيوانات لهم آية ، وفي أنفسكم آية ، وقد أعرضوا عن هذه الآيات التي ربما وجه صالح عليه السلام أنظارهم إليها ، بل عقروا الناقة التي هي آية ومعجزة : ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ وذلك لخبرتهم في عملية النحت والتفنن فيه وصلابة بنيانهم حتى أنهم ذهبوا ولا زالت آثار بنيانهم باقية على مر الزمن تشهد على قدرتهم وحضارتهم آمنين من عوامل الطبيعة والرياح المزمجرة واشتداد درجة الحرارة في هذه البقاع ، ولكن عندما جاءهم صالح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده فكفروا به وبدعوته وقتلوا المعجزة التي هي الناقة : ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما

أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ فأخذتهم الصيحة فجأة وهم ذاهبون إلى أعمالهم في الصباح الباكر آمنين فلم تغن عنهم مساكنهم التى نحتوها ولا أولادهم ولا أموالهم ولا قوتهم .

هنا نحن الأن على مقربة من نهاية قصة سيدنا صالح عليه السلام ففى سورة الذاريات الآية ٤٣ ـ ٤٥ يقول تعالى : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ أى حتى يأتى الأجل المكتوب والباقى لكم من الحياة : ﴿ فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ أى عندما تمادوا فى طغيانهم وكذبوا الرسول وعقروا الناقة فأخذتهم الصاعقة وهى الصوت المرعب المدوى ، وهم ينظرون إلى هذا العذاب الذى دهمهم : ﴿ فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ فمن الذى ينصرهم من عذاب الله ؟ أينصرهم كفرهم ؟ أتنصرهم عبادتهم لغير الله ؟ كلا وألف كلا . إنما النصر من حق المؤمنين الموحدين .

نهاية ثمود وعاد :

وجاء كذلك فى سورة الحاقة الآية ٤ ـ ٥ قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى هنا ثمود قوم صالح وعادا قوم هود بأنهم كذبوا بالإنذارات الموجهة إليهم على لسان أنبيائهم فكذبوا وظنوا بأن رسلهم كاذبون : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ التى طغت على طغيانهم : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ دخلت عليهم ديارهم فأهلكتهم فلم تبق منهم باقية : ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

وها نحن نصل إلى نهاية قصة سيدنا صالح عليه السلام مع قومه وهى نهاية مظلمة قاتمة مرعبة وتلك نهاية كل ظالم متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

ففى سورة النجم الآية ٥٠ ـ ٥١ يقول تعالى : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى * وثمودا فما أبقى ﴾ قيل إن عادا الأولى هم قوم هود عليه السلام وعادا الثانية هم قوم صالح عليه السلام ـ أى لم يبق لهم أثر إلا بنيانهم وقلاعهم وتلك نهاية الظالمين فى كل زمان ومكان وإن ربك لبالمرصاد .

إبـراهيـم وإسماعيـل

ولـوط

عليهـم الســلام

إبراهيم يستدل على مكان البيت :

في سورة الحج يقول تبارك وتعالى الآية ٢٦ : ٢٧ : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ أي مهدناله رؤية أساس البيت فقد اندثر مكانه لبعد الزمن وغطته الرمال فأرسل الله ريحاً فكشفت له الأساس وأعطاه الله تصريحاً أي توكيلاً في بنائه : ﴿ أن لاتشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ الخطاب موجه إلى الناس كافه في شخص إبراهيم عليه السلام بعدم الإشراك بالله وكلمة « شيئاً » كلمة جامعة أي لايشرك به أي شئ : لا شمس ولاقمر ولانار ولاحجر ولاحيوان ولاإنس ولا جان ولا ملائكة، وطهر بيتي أي البيت الحرام وإضافته إلى نفسه لعلو قدره أي اجعله دائماً مطهراً ، ولكن في بعض الفترات عندما يعم الجهل وتضمحل العقيدة يكون البيت الحرام أول ماتوضع فيه الأصنام لعبادتها أي لدعائها والدعاء هو العبادة للطائفين وهي كلمة تدل على أن الطواف بالبيت كان مستمرا ليلاً ونهاراً والقائمين الموجودين في رحابه والركع السجود أي أن ساحة البيت لاتخلو من الطائفين والراكعين والساجدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الخليل يؤذن في الناس بالحج :

﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ وبعد انتهاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من بناء البيت أمر الله إبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج فقال إبراهيم : وما يبلغ صوتي ؟ فقال له الله : أذن أنت وعلى البلاغ فأذن إبراهيم وقال : أيها الناس إن الله بنى لكم بيتاً فحجوه » فسمع من في أصلاب الرجال وأرحام الناس جميعاً فمن كان شقياً كافراً نسي هذا الأذان ومن كان مؤمناً سمع وأجاب حينما يحين الوقت المعلوم ومعنى يأتوك رجالاً أي سائرين على أقدامهم من الأماكن القريبة للبيت الحرام ، ومعنى على كل ضامر أي الإبل التي ضمرت من السير الطويل والجوع والعطش ولايظن ظان بأن الطائرة لايصيبها الضمور فقد رأينا الطائرة عند هبوطها في المطار تحط بمؤخرتها على الأرض كأنها تجلس لتستريح من مشقة الطيران والموتور يبدأ في الهدوء ويبرد بعد السخونة الشديدة .

مقارنة بين الإبل والطائرة :

وعندما تحط الطائرة في المطار تطلب الطعام والشراب من شدة الجوع والعطش وطعامها هو البترول وشرابها هو الماء ، يأتين من كل فج عميق والفج جمعه فجاج وهي الممرات الواسعة والعميقة أي البعيدة والكل يجتمع في هذا

المكان الطاهر تلبية لنداء أبيهم إبراهيم يأتون من مشارق الأرض ومغاربها فترى منهم من جاء على الأرض يسعى ، ومنهم من جاء محمولا على ذات ألواح ودسر ، ومنهم من جاء محمولا بين السماء والأرض والكل فى شوق ومحبة ليطوفوا ببيت الله الحرام فى الأرض كما تطوف الملائكة بعرش الرحمن فى السماء والكل ينادى لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك .

إبراهيم فى لجنة الامتحان الإلهية :

وفى سورة البقرة يقول تعالى فى الآية ١٢٤ : ١٣٥ : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ أى أن الله امتحن إبراهيم بأوامر فنفذهن وهذه الأوامر هى خمسة فى الرأس وخمسة فى البدن ففى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الشعر وفى الجسد تقليم الأظافر وحلق العانة والاختتان ونتف الإبط وغسل مكان الغائط والبول بالماء فأتمهن بنجاح :المعانى اللغوية فى كلمة جعل » : ﴿ قال إني جاعلك للناس إماما ﴾ فكلمة جعل على معان عدة : جعل بمعنى خلق - وجعل بمعنى غير خلق - وجعل على معنى زعم . فعلى معنى خلق ﴿ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾ أى خلق القمر وخلق الشمس ﴿ وجعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها أى خلق لكم من أنفسكم أزواجا - ﴿ وجعل فيها رواسى أن تميد بكم ﴾ أي خلق فيها رواسى ﴿ وجعلن الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا أى خلق لكم الليل والنهار - ﴿ وجعلنا من كل زوجين اثنين ﴾ - ﴿ وجعل لكم الأرض فراشا ﴾ - أى خلق لكم الأرض لتكون لكم فراشا ، وعلى معنى غير خلق - ﴿ إني جاعلك للناس إماما ﴾ ليس معنى إني خالقك للناس إماما - ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ﴾ - ليس معنى أنا خلقناك على شريعة ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ﴾ - ليس معناه اخلقنى مقيم الصلاة - ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ - ليس معنى اخلق لى لسان صدق - ﴿ وجعلنا عاليها سافلها ﴾ - ليس معنى خلقنا عاليها سافلها ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ ليس معنى نخلقك آية للناس - وعلى معنى زعم - ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ أى زعموا - ﴿ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله ﴾ - أى زعموا - ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ أى زعمتم أن الأمرين متماثلان وفى القرآن كثير من هذا وذاك أى نصيرك للناس إماما أى قدوة ليقتدى بك الصالحون فى هذه الخصال : ﴿ قال ومن ذريتى قال

* من أين لك هذا ؟ فالإمام الطبرى يرى أن الكلمات شرائع الله ويرى ابن كثير أنها الأوامر والنواهى

لاينال عهدى الظالمين ﴾ يدعو إبراهيم ربه أن يجعل من ذريته إماما فإن الإمامة ليست وراثة يرثها اللاحق عن السابق إنما تكون بالعمل الصالح وإيمان وتقوى واتباع منهج الله وسنة رسوله لأن من ذريته من سيكون ظالما والظالم لايناله عهد الله : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾ أى صيرناه مثابة أى يرجع إليه فكل من حج البيت يريد أن يعود إليه مرة ثانية أى ليثوب إليه وكلمة جعلنا البيت أى ليس خلقنا البيت إنما صيرنا البيت أى الكعبة مثابةللناس أى ذهابا وإيابا ، والكعبة لاتخلو من الطائفين حولها ليلا ونهارا وأمنا أى مكانا آمنا لايخاف فيه المسلمون : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ ومقام إبراهيم هو الحجر الذى كان يبنى عليه البيت وقيل إن الحجر كان يرتفع مع ارتفاع البناء وقد وضع عليه قبة حتى لا يداس بالأقدام من شدة الزحام والصلاة عند المقام فى اتجاه الكعبة ركعتان سنة إن استطاع الطائف وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده ركعتين ، ولايتخذ ذلك ذريعة عند الجهلاء بأنه تجوز الصلاة عند مقامات الأولياء وذلك خطأ كبير فالله لم يأمرنا بأن نصلى عند أى مقام أو قبر إنما صلاتنا عند مقام إبراهيم هو أمر إلهى يجب أن ننفذه إن استطعنا .

الخليل وإسماعيل يطهران البيت العتيق :

﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ أى من جميع النجاسات للطائفين والمقيمين فيه أى المجاورين والصلاة العملية بالركوع والسجود : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ يدعو إبراهيم ربه أن يرزق أهل الحرم بعد أن يجعله آمنا من الثمرات أى جميع ما تنبت الأرض من الخيرات ، لأن مكة ليس فيها نبات بل هى صحراء قاحلة أى يبعث لهم من يحمل هذا الرزق وأن يكون ها الرزق لمن آمن منهم فقط ، ولكن الله يعقب على دعاء إبراهيم بقوله تعالى ﴿ قال ومن كفر ﴾ أى إذا كان الله سيطعم من آمن حسب دعاء إبراهيم فمن يطعم الكافر . أأله و رب غيرى يرزقه من الثمرات ؟ ﴿ فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ أى هذا الكافر المخالف لشريعتى أمتعه قليلا فى هذه الدنيا ثم أعيده إلى عذاب النار فى الآخرة ، وهذا مصيرهم بسبب كفرهم بأنبيائى ورسلى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ أى يرفع إبراهيم وابنه أساس البيت أى الكعبة وهما يدعوان الله أن يتقبل منهما هذا العمل لوجهه الكريم ، وأنت السميع لما ندعو العليم بما فى نفوسنا : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ أى مطيعين لك فى كل أقوالنا وأفعالنا ، وكلمة واجعلنا مسلمين لك ـ أى

صيرنا مسلمين لك ، ويدعو إبراهيم وابنه إسماعيل لذريتهم بأن تكون أمة مسلمة لك أى عابدة خاضعة لك قانتة مخبتة لتعاليمك : ﴿ وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ وهى مناسك الحج من طواف وسعى وحلق والوقوف بعرفات والذبح بمنى علمه إياها جبريل عليه السلام وتب على مرتكبى الصغائر منا فإنك أنت التواب على عبادك وأنت الرحيم بهم برحمتك الواسعة : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ﴾ . وهما يشفقان على ذريتهما وخوفا من أن تغتالهم الشياطين يطلبون من الله سبحانه وتعالى أن يبعث منهم أى من نفس الذرية رسولا يعلمهم شريعتك : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ الكتاب الذى سينزله الله عليه ليتلوه عليهم والحكمة هى ما يسنه الرسول لهم : ﴿ ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى ويطهرهم من أوضار الشرك والظلم والبغى وشرب الخمر والربا ووأد البنات إنك أنت العزيز الذى لايغلب ، الحكيم الذى يسير الكون بحكمته : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى لا يبتعد ويذهب عن ملة ابراهيم وينصرف عنها إلا من خان عقله وأضل نفسه من اليهود والنصارى الذين اتخذوا من اليهودية والنصرانية بدعة ابتدعوها لم يشرعها الله ولقد اصطفاه الله فى الدنيا أى اختاره للرسالة وجعله إماما يؤتم به وفى الآخرة من الفائزين .

إبراهيم يوصى بنيه باتباع الإسلام

﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ أى سلم أمورك كلها لله رب العالمين قال أسلمت مقاليدى ومحياى ومماتى لله رب العالمين : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أى وصى إبراهيم بنيه إسماعيل وإسحاق وابن اسحاق يعقوب بحمل هذه الرسالة وهى الإسلام دين التوحيد وهو إسلام الوجه لله والتمسك بالملة السمحاء وإن الله اختار لكم هذا الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ﴾ الخطاب موجه إلى اليهود والنصارى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم عليه السلام ويقول اليهود إن إبراهيم كان يهودياً ويقول النصارى إن إبراهيم كان نصرانياً فيرد عليهم القرآن يوبخهم على قولهم هذا ، هل كنتم موجودين حين وقت احتضار الموت يعقوب ماذا قال لبنيه ؟ ما تعبدون من بعدى ؟ يريد أن يطمئن على رسالة التوحيد التى ورثها من أبيه

● يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا دعوة أبى إبراهيم

إسحاق كما ورثها إسحاق من أبيه إبراهيم عليهم السلام فلم يسألهم عن مال ولاغيره إنما يسأل ليسمع منهم الإجابة .

الابناء يستجيبون لدعاء ابيهم :

﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون ﴾ فكل نبى يريد قبل رحيله أن يوصى أمته بأغلى وصية ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وفى مرضه الذى لم يقم منه يضع الغطاء على وجهه فإذا اغتم رفع الغطاء من على وجهه الشريف وقال ـ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » وقال صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ﴾ فرسول الله يوصى أمته بأن يبتعدوا عن هذه الآفات والأرجاس التى تقوض أساس الدين : فخلف من بعدهم خلف ، فسقطنا فى ما نهانا الرسول عنه فاتخذنا على القبور مساجد ، ويقول الإمام أحمد رضى الله عنه : المسجد والقبر لايلتقيان فالقبر قبر والمسجد مسجد فإذا كان القبر أولاً فلا يبنى عليه مسجد وإذا كان المسجد أولاً فلا يجوز أن يدفن فيه أحد مهما كان هذا الأحد لأن الله تعالى يقول : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ وما دام هناك قبر فى المسجد أو بجوار المسجد فى حجرة منفصلة فسيتوجه الناس بالدعاء إلى هذا المقبور فى المسجد ولذلك قال فلا تدعوا مع الله أحدا ، ولذلك قام سيدنا يعقوب يمتحن أبناءه ليسمع منهم الإجابة كى يطمئن قلبه ويذهب إلى الله مرتاح الضمير ، فقد سلم الأمانة إلى أبنائه كما تسلمها من أبيه إسحاق ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ مسلمون لله فى كل أعمالنا وأقوالنا مسلمة لله كل جوارحنا خاشعين خاضعين لله رب العالمين ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ أى قالت اليهود كونوا هودا تهتدوا وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا أى كل ملة كانت تدعو لدينها يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾بل نتبع ملة إبراهيم أبينا وأبيكم حنيفا وما كان من المشركين ولكنكم أنتم مشركون فاليهود يقولون : عزير ابن الله وهذا شرك وأنتم أيها

● وقال رسول الله إنه لايستغاث بى وإنما بالله ـ إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد ـ اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ـ وقال لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ـ الموطأ ـ وقال لاتتخذوا قبرى عيداً ولاتجعلوا بيوتكم قبوراً أى عدم الصلاة فيها فإن صلاتكم على تبلغنى أينما كنتم ـ وعن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الرقى والتمائم والتولة شرك ـ إن أحبكم إلى وأقربكم منى من لقينى على مثل الحال التى فارقتكم عليها . ويقول ـ من رغب عن سنتى فليس منى»

النصارى تقولون : عيسى بن الله وهو شرك كذلك فكيف تنتمون إلى إبراهيم حنيفا أى مائلا عن عبادة غير الله إلى عبادة الله ؟

محاجة الخليل والنمرود :

وفى سورة البقرة كذلك الآية ٢٥٨ يقول تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ﴾ هو النمرود فقد اغتر بما آتاه الله من النعم والمال والسلطان فبدلا من أن يشكر الله على ما أنعم الله به كفر وعاند وجحد الذى أغدق عليه هذه النعم ، ووقف يجادل إبراهيم فى ربه وظن أن السلطان والملك والقوة فى يده وفى أثناء المجادلة والمحاورة ﴿ إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ﴾ وسيدنا إبراهيم يريد بهذه الحجة التى هى أن الإحياء والإماتة الحقيقية هى من شأن الله تعالى لا التحايل على هذه الحجة بالشبهات فقال الملك النمرود ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ أى أنه يستطيع أن يأتى باثنين محكوم عليهما بالإعدام فينفذ الحكم فى الأول ويترك الثانى ليحيى ولكن إبراهيم عليه السلام لم يسترسل مع النمرود فى هذه الشبهات : ﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ وهذه الحجة الظاهرة أمامهم التى لاتنكرها العين فهى ماثلة أمام أعينهم شروقا فى الصباح وغروبا فى المساء : ﴿ فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ فبهت الذى كفر أى انقطعت حجته ولم يستطع أن يقول أمام قومه أنا آتى بالشمس من المغرب ، لأن ذلك القول لايصدقه أحد من قومه وبدلا من أن يذعن للحق ويؤمن أخذه الغرور والتكبر فمنع الله عنه الهداية لأنه لايستحقها وهى ليست لها قبول عنده فأصبح من الظالمين : ظالما لنفسه بعدم اتباع الحق الذى أظهرة إبراهيم عليه السلام بالحجة وظالما لقومه إذ صدهم عن الهدى بسلطانه وجبروته .

حوار الخليل مع ربه بشأن إحياء الموتى :

وفى سورة البقرة كذلك الآية ٢٦٠ يقول تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ فإبراهيم عليه السلام يريد أن يرى كيفية الإحياء بعد الإماتة قال أولم يكفك إيمانك بعلم اليقين بأنى أحيى وأميت وهى حالة ظاهرة أمام أعين الناس قال بلى أى مؤمن بذلك حق الإيمان فإبراهيم يريد أن يعرف سر الصنعة والإنسان يعرف بأن هذا المهندس هو الذى اخترع التليفزيون ولكن يقول له كيف صنعت هذا الجهاز ، فهو ليس بشاك فى أن هذا المهندس هو الذى صنع هذا الجهاز أى التليفزيون ولكن هو يريد أن يعرف سر الصنعة ليطمئن قلبى فلا أفكر فى هذا الموضوع بعد

أن أعاين ذلك بنفسي ، فيستجيب الله إلى طلبه : ﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ﴾ وبدأ الصانع سبحانه وتعالى يعلم إبراهيم سر الصنعة الإلهية خذ أربعة من الطير ولا تخض فى أسمائها وأوصافها ما دام الله لم يذكر لنا أسماءها ، ولوكان فى ذكر أسمائها فائدة لذكرها لنا إنما يريد أن نستخلص العبرة . فصرهن إليك أى ضمهن إليك ثم عاينهن معاينة تامة ، واعرف أوصافهن وأشكالهن ثم قطعهن قطعا صغيرة بريشها وعظامها ولحمها ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا أى وزعهم على الجبال وهن مختلطة لحومهن بعضها ببعض ، ثم ادعهن أى ناد عليهن يأتينك سعيا أى مسرعات : ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ عزيز لايغلبه شيء من مخلوقاته فالكل فى قبضته حكيم يعيد المخلوقات الفانية بكل صفاتها وأشكالها بحكمته .

الخليل يدعو ربه :

وفى سورة إبراهيم الايه ٣٥ : ٤١ يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ يدعو إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل هذا البلد أى مكة آمنة من كل سوء فى جميع الأجيال متمتعة بنعم الله التى جاءتها بدعوة إبراهيم بانى هذا البيت سبحان الله خليل الرحمن يدعو ويقول وجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام لما رأى من عبادة قومه لها : ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾ نعم هذا حق ما أكثر الذين عبدوا المقاصير وما أكثر الذين عبدوا الحجارة وما أكثر الذين عبدوا التوابيت وما أكثر الذين عبدوا القبور وما أكثر الذين عبدوا البشر ، ثم صور لهم الشيطان أن هذا كله من باب التوسل إلى رب العالمين ، واتخذوا إليه الوساطات فسقطوا فى هاوية الوثنية الأولى التى جعلت الأصنام والحجارة وسائط ، وقالوا ما نعبدهم أى ما ندعوهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ولذلك قال خليل الرحمن : ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى ﴾ فى كلمة التوحيد فهو منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ، فهو لم يدع على من عصاه فإن إبراهيم وهو الأواه الحليم يترك عصيانهم لله ويظللهم بغفران الله ورحمته وقد جاء حفيده محمد صلى الله عليه وسلم على نفس المنهج عندما قال له ملك الجبال : أمرنى ربى بأن أطبق عليهم الأخشبين أى الجبلين عندما عاد من الطائف أراد أن يعرض عليهم رسالة الإسلام فأغروا به صبيانهم فقذفوه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لملك الجبال : إنى أرجو من الله أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله فقال له الملك صدق الذى سماك الرءوف الرحيم .

الخليل يودع عند البيت الحرام:

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ أي زوجته هاجر وابنه اسماعيل وذلك عندما وضعت هاجر ابنها إسماعيل غارت منها سارة مع أنها هي التى زوجته إياها فأمرت إبراهيم بأن يأخذ هاجر وابنها إلى مكان بعيد فسافر بهما من فلسطين إلى مكة وأبقاهما هناك ولم تكن مكة قد ظهرت على وجه الأرض فأخبره الله بأن هنا مكان البيت ، وكر راجعا إلى فلسطين وتركهما فى هذا المكان الموحش فنادته هاجر أتتركنا هنا وتذهب ؟ قال : نعم قالت هل آمرك الله بذلك ؟ قال : نعم . قالت إذن لن يضيعنا وجلست ومعها ابنها إسماعيل فى هذه الصحراء القاحلة لا إنس ولاطير ولاحيوان وفرغ الماء والزادوأصبح الطفل يتلوى من العطش فتركته وصعدت إلى جبل الصفا لعلها تجد إنسانا أو طيرا أو حيوانا فنظرت يمينا وشمالا فنزلت من على الصفا وسعت لتصعد إلى جبل المروة لعلها تجد شيئا وهى فى سعيها بين الصفا والمروة تسمع بكاء الطفل فتسرع إلى أن صعدت المروة ونظرت يمينا وشمالا فلم تجد شيئا فهيأ لها خيالها أنها رأت شيئا وهى على الصفا فنزلت من على المروة تريد الصفا وعند منتصف الطريق صك أذنها صياح الطفل فأسرعت الخطى حتى صعدت على الصفا ، فلم تجد شيئا فنزلت من الصفا تريد المروة لتتحقق جيدا لربما يكون هناك شئ وفى منتصف الطريق هاجها صراخ الطفل فأسرعت الخطى إلى المروة ووقفت على المروة تحد البصر ولكن لم تر شيئا فنزلت من على المروة هل تركن إلى الراحة ؟ وأين الراحة ووليدها من شدة الصراخ يريد أن يفتت كبدها وسارت بين الصفا والمروة سبعة أشواط وكانت كل شوط بين الصفا والمروة تسمع أنين ابنها فقد ضعف عن الصراخ فكانت تسرع لئلا تسمع صراخه وأنينه ولذلك يسرع الحجاج بين الصفا والمروة فى المكان الذى كانت تسرع فيه هاجر ، وقد وضع عمودان فى المكان الذى تسرع فيه هاجر وأرادت أن تبدأ بالشوط الثامن إلا وجاء الفرج فنبع الماء من تحت رجلى الطفل فسقت ابنها ثم شربت هى وملأت وعاءها والماء يسيل فى الرمال ومن خوفها من أن تشرب الرمال الماء كانت تعمل سدا للماء وتقول زمى زمى ولذلك سميت زمزم وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله أم إسماعيل لولا قولها زمى زمى لكانت نهراً جارياً وفى سنة ١٤١٥هـ ١٩٦٤ م قامت لجنة من الخبراء الجولوجيين بتقدير المياه الموجود فى آبار الجزيرة العربية وعند تقديرهم لبئر زمزم وجدوه ينبع من محيط لاقرار له سبحانه قادر على كل شيء * .

عن جريدة الشعب

تضرع إبراهيم لربه بشأن أهله :

﴿ ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ وقد ذكرت الصلاة من دون العبادات كلها لأنها هي الأساس فمن صلحت صلاته صلح سائر عمله ومن ساءت صلاته ساء سائر عمله ، فاجعل أفئدة من الناس أى هيئ لهم قلوب الناس لتميل إليهم بالمحبة والرغبة فى التوجه إليهم وارزقهم من الثمرات التى تأتى بها الناس والشركات إليهم لمحبتهم فيهم وهم حماة الحرم وعماره لعلهم يشكرون نعمك وفضلك وبركاتك عليهم : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولافى السماء ﴾ وفى تذلل وانكسار يدعو إبراهيم ربه إنك تعلم ما فى نفوسنا من حب وشكر وتقدير لما أنعمت علينا بالهداية ورزقنا الولد على الكبر ، وليس يخفى على الله من شئ لافى الأرض ولا فى السماء : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء ﴾ إبراهيم عليه السلام يحمد الله حمد الشاكرين إذ وهب له فى أواخر حياته إسماعيل من زوجته هاجر وإسحاق من زوجته سارة : إن ربى لسميع الدعاء : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ﴾ أى صيرنى ووفقنى لأقيم الصلاة وليس معنى ذلك بأن صحف إبراهيم ليس فيها من الشرائع إلا الصلاة بل تحتوى على جميع الفضائل وتنهى عن الرزائل ، وقد قرن الله صحف إبراهيم بتوراة موسى وسمى التوراة صحفا فى قوله تعالى « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى : ﴿ ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ يدعو إبراهيم عليه السلام بالمغفرة له ولوالدية وقد كان يظن أن أباه سيؤمن فالمغفرة لوالديه معلقة بنطقه التوحيد وكذلك يدعو لجميع المؤمنين بالمغفرة يوم الحساب وليس معنى قول إبراهيم رب اغفر لى أى أن إبراهيم عليه السلام مرتكب ذنوبا بل هو زيادة تضرع لله ولقد جاء فى سورة مريم الآية ٤١ : ٥٠ قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾ أى واذكر يا محمد فى الكتاب أى القرآن لليهود والنصارى وغيرهم قصة إبراهيم عليه السلام الذى ينتمون إليه كذباً وزوراً وذكرهم بأنه كان صديقاً نبياً أى أنه مصدق ومذعن لما يوحى إليه وأنه كان مسلماً لله وجادل أباه لينهيه عن عبادة الأصنام .

الخليل إبراهيم يدعو أباه

﴿ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئاً ﴾ بهذا الحنان وهذا اللطف والتودد يخاطب أباه لأى شيء تعبد من لايسمع دعاءك إذا دعوته ولايبصر من أمامه ولايغنى عنك شيئاً ولايدفع عنك ضرا ولايجلب

لك أى نفع : ﴿ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ﴾ أى جاءتنى الرسالة من الله بما فيها من علم الدنيا والآخرة ما لم يجل بخاطرك ﴿ فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ﴾ ولامانع من أن يتبع الأب ابنه أو الابن أباه ما دام جاءه بشىء فيه هدايته فى الدنيا ونجاته فى الآخرة : ﴿ يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ﴾ ولازال الحنان متوقداً فى صدر إبراهيم : يا أبت لاتعبد الشيطان فالشيطان هو الذى أوحى إليهم بعبادة الأصنام فتكون العبادة أصلاً للشيطان ، والشيطان عاص للرحمن فيكون هو بالتالى عاصيا للرحمن فيصبح وقومه أولياء للشيطان أى ناصرين لباطله : ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ وإبراهيم عليه السلام لم ييأس من دعوة أبيه إلى التوحيد فهو خائف على أبيه إذا استمر على ماهو عليه من عبادة الأصنام أن يمسه العذاب فى الآخرة فيكون قريباً للشيطان وبدأت المواجهة الشرسة والتهديد اللاذع من الأب العاصى فى مواجهة الابن البار الصالح الذى يدعوه إلى الهدى والتقى : ﴿ قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ﴾ أى أنت راغب عنها إلى غيرها وكاره عبادتها يا إبراهيم : ﴿ لئن لم تنته ﴾ أى عن تنفيرك وتحقيرك وإهانتك لآلهتنا : ﴿ لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾ أى لأرجمنك بالحجارة وابتعد عنى واعتزلنى وأبق على حياتك إن كنت تريد الحياة : ﴿ قال سلام عليك ﴾ ويجوز السلام على الكافر إذا كان لك حاجة عنده وإبراهيم له حاجة عند أبيه يريد منه أن ينطق بكلمة التوحيد : ﴿ سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴾ أى عندما تؤمن بأن الله هو المعبود بحق والله لطيف بى وأرجو أن يجيبنى فى دعائى هذا : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ أى أفارقكم وأفارق الذين تدعونهم من دون الله : ﴿ وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾ وأدعو ربى خالصاً من كل قلبى ألا يجعلنى شقياً : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ أى اعتزلهم وابتعد عنهم وعن آلهتهم التى يعبدونها من دون الله : ﴿ وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ﴾ فلم يشأ أ ن يتركه وحيدا بل وهب له إسحاق ويعقوب بن إسحاق ليؤنس وحشته ولم يذكر إسماعيل لأن إسماعيل كان بمكة هو وأمه هاجر وإبراهيم الآن كان فى فلسطين ولذلك ذكر إسحاق نبيا وابنه يعقوب وكلا جعلنا نبيا أى جعل إسحاق نبيا وابنه يعقوب نبيا لأن النبى إذا رزق بابن صالح وعاش يكون نبيا بعد أبيه ولذلك رزق الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بابنه إبراهيم ولكن توفاه الله وهو صغير لأنه لو عاش لأصبح نبيا بعد أبيه رسول الله خاتم النبيين ولانبى بعده.

﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ أى وصيرنالهم في كل زمان من يثنى عليهم الثناء الحسن كما نقول في التشهد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وفي سورة الأنعام الآية ٧٤ : ٨٣ يقول تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ﴾ فقد أحس إبراهيم بفطرته السليمة : أهذه الحجارة التي ينحتونها بأيديهم تكون آلهة .. تعبد من دون الله ؟ هل هى الخالقة لهذا الكون الواسع ؟ وهل هى الرازقة للمخلوقات مع أنها أحجار لاتسمع ولاتبصر ولاتستطيع أن تدافع عن نفسها إن أرادها أحد بسوء ؟ فلا بد من أن يكون هناك إله لهذا الكون الفسيح : ﴿ إنى آراك وقومك فى ضلال مبين ﴾ أى عقولكم ضالة وفطرتكم اختلت عن ميدان الحق .

الخليل يحاور قومه

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكونن من الموقنين ﴾ أى نكشف له عن أسرار السموات والأرض ليكون على يقين تام، والله سبحانه وتعالى يقول لنريه ولم يقل ليرى لأنه لايستطيع بهذه الحاسة الدنيوية وهى النظر أن يرى أسرار السموات والأرض ، ولكن الله هو الذى يريه ومثل قوله تعالى فى حق سيدنا محمد سيدنا صلى الله عليه وسلم عند الإسراء : ﴿ لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ لأن النظر العادى لايستطيع أن يرى إلا المخلوقات الظاهرة : ﴿ فلما جنّ عليه الليل ﴾ أى ستره وأظلم عليه : ﴿ رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ فإبراهيم يتحسس الطريق السليم والأصنام ليست هى الطريق السليم ، فهو يقضى الليل ساهرا يتحدث عن خالق هذا الكون العظيم والأصنام ليست خالقة لهذا الكون وفى هذه الظلمات المتراكمة أمام إبراهيم ظلمة الليل ظلمة الطريق عن البحث عن الإله الخالق وكان حفيده محمد صلى الله عليه وسلم يتحدث فى غار حراء ليهتدى إلى خالق هذا الكون كما كان جده إبراهيم يفعل ولذلك قال له ربه : ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ أى كنت ضال الطريق فهداك إليها وهل سيدنا إبراهيم لم ير فى حياته كواكب أو أقمارا أو شموسا بل هى أمام عينيه يراها لكنها رؤيا عابرة لايهتم بها ولكن فى هذه الليلة رأى بكل إحساسه وفكره واهتمامه صفحة السماء بكل نجومها وحركاتها وهنا رأى كوكبا كبيرا يشع بالنورقد يكون كوكب الزهرة أو المشترى وهما أكبر الكواكب فى صفحة السماء أمام أعيننا : ﴿ قال هذا ربى ﴾ فإن هذا الكوكب أفضل من الصنم : ﴿ فلما أفل ﴾ أى غاب

قال لا أحب الافلين أى لا أحب ولا أعبد الذى يغيب عن مخلوقاته : ﴿ فلما رأى القمر بازغا ﴾ بنوره الذى أضاء الدنيا : ﴿ قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ أى لئن لم يهدنى ربى إلى دينه الحق ويهدنى بمعونته إليه وإلا أكن من القوم الضالين .

وهنا فرق بين الضال الذى يحاول البحث بفطرته عن الطريق السوى والضال الذى طمست فطرته فلا يرى إلا ما كان يعبد آباؤه فهو فى ضلال الفطرة المغيبة وضلال العبادة : ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ﴾ أى ربى أشرق نوره فهو أكبر من الأول والثانى وإبراهيم لايقصد الجرم بقوله ربى إنما يقصد النور : ﴿ فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون ﴾ وشركهم بالله هو عبادتهم للأصنام وما دام الكواكب والقمر والشمس وهى أفضل من الأصنام بكثير فهى تشع بنورها ليهتدى به السائرون ومع ذلك فهى تغرب وتختفى والله الخالق المدبر لهذا الكون لايغرب ولايختفى : ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ أى وجهت وجهى لخالق هذا الكون سمائه وأرضه حنيفا أى مائلا إلى الحق عن الباطل وما أنا من المشركين أى أنه يتبرأ من الشرك الماثل فى الأصنام أو الكواكب أو القمر أو الشمس : ﴿ وحاجه قومه ﴾ أى جادلوه وناقشوه فى ربه : ﴿ قال أتحاجونى فى الله وقد هدانى ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون ﴾ أى تجادلونى فى الله أحمد الله إ ذ هدانى وإنى لاأخاف هذه الأصنام التى تشركون بها مع الله إلا أن ينالنى الله بسوء بسبب سوء تصرفى وسع ربى كل شيء علما فالله يرى أعمال مخلوقاته ويسمع أقوالهم بعلمه الواسع أليس لكم عقول تفكرون بها ؟ : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ﴾ أى كيف أخاف هذه الأصنام المنحوته من الحجارة التى أشركتموها مع الله : ﴿ ولاتخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ﴾ أى تخوفوننى من هذه الأصنام التى لاتنفع ولاتضر مع أنكم لاتخافون الله خالق هذه الحجارة التى تعبدونها وليس لكم حجة فى عبادتها الا أنكم وجدتم آباءكم كانوا يعبدونهابدون تعقل ولاتدبر : ﴿ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ أى إبراهيم أحق بالأمن منكم وأنا فى كنف الله ورعايته أ م أنتم الذين تلوذون بتلك الأصنام مع أنها لاتستطيع أن تدافع عن نفسها إن كنتم تعلمون من الأولى بالأمن .

حوار الخليل إبراهيم مع قومه بعد تحطيمه للأصنام :

وفي سورة الأنبياء الآية ٥١ ـ ٧٥ يقول تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ أي العقل الذكي والهدى والرشاد عندما رأى الكوكب والقمر والشمس أفلت ، وهنا تيقن بأن هذا الكون لابد أن يكون له خالق ومسير وإن كنا لا نراه عيانا فإنا نراه في صنعته : من الذي سير الكواكب والقمر والشمس ووهب لها هذه الأنوار ؟ ومن الذي خلق هذا الخلق ودبره ونظمه على غير مثال ؟ وكنا به عالمين بما ينطوي عليه قلبه من التوحيد الخالص لله رب العالمين : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ إذ قال لأبيه وقومه وملكهم النمرود ، هو سؤال استنكاري وفيه إهانة وتحقير وأنتم عاكفون على عبادتها واللجوء إليها وتقديسها ، وسؤاله لهم هذا هو الذي فتح بابا للهجوم عليهم وعلى آلهتهم : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ أي ورثوا هذه العبادة من آبائهم تقليدا بدون تعقل ولا تفكير ولا روية .

وهنا يطلق إبراهيم قذيفة الحق على باطلهم : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي في خسران ظاهر الوضوح : ﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ لقد أصبح الموضوع جداً لا هزلا أهذا الكلام الذي تجابهنا به هل هو حق أم أنك تريد أن تلعب بعقولنا ؟ لقد أصبحوا الآن في شك من عبادتهم لهذه الأصنام فهم يريدون أن يستفسروا عن هذا الموضوع : ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض ﴾ يحس إبراهيم بأن الشك بدأ يتغلغل في قلوبهم بل ربكم الحق هو رب السموات والأرض اللتين تشاهدونهما فوقكم وتحت أرجلكم : ﴿ الذي فطرهن ﴾ أي الذي أوجدهن ـ وقد روى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول ما كنت أعرف قول الله سبحانه وتعالى ـ الذي فطرهن ـ إلا عندما جاءني رجلان من البادية يشكو أحدهما الآخر فقال أحدهما : يا ابن عباس إن هذا الرجل يريد أن يشاركني في بئري التي فطرتها لنفسي أي ابتدعتها بنفسي .. وذلك قوله سبحانه وتعالى بديع السموات والأرض أي مبدع السموات والأرض : ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ أي ليس شهود عيان لأن إبراهيم لم يشهد خلق السموات والأرض ولكنه يشهد بأن هذا الكون الفسيح لابد أن يكون له إله يضبط مسيرته ويتحكم في نظامه وإن لم يكن يراه ولكن يرى أفعاله كما قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الإحسان ؟ قال له الرسول : الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، ويظهر أن إبراهيم عليه السلام شعر بنفورهم من دعوته لهم وقال : ﴿ وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ أي راجعين بعد عكوفكم

عند أصنامكم ويظهر أن من بينهم رجلا سمع كلام إبراهيم وهو يتوعد أصنامهم بالكيد ، ولم يفصح عما يريد أن يفعله بأصنامهم ، وجاء الليل وأسدل ستاره فطاح فيهم إبراهيم بفأسه يمينا وشمالا ، فهو واثق بأن الله معه ومستعد لما يصيبه من مكروه في سبيل الله : ﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم ﴾ أى كسر الأصنام الصغيرة وأبقى على الصنم الكبير : ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ أى ليسألوه : من كسر هذه الآلهة الصغيرة وإن كانت لا تستطيع الدفاع عن نفسها لصغرها فلماذا أنت الكبير لم تدفع عنهم ؟ وعند حضورهم إلى آلهتهم وقد وجدوها على هذه الحالة : ﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا ﴾ أى من الذى كسر وحطم آلهتنا ؟ لو كان عندهم ذرة من عقل يقولون آلهتنا بعد أن تحطمت وأصبحت فتاتا مبعثرة ؟ ولكنها العقول المظلمة والوراثة الضالة : ﴿ إنه لمن الظالمين ﴾ أى الذى فعل هذا ظالم لأنه سيجعلهم يعيشون بدون آلهة يعكفون حولها ، ويقدمون لها القرابين والنذور إنه ظالم - سبحانه الله ..... الذى يكسر ويمحق الباطل ظالم فى تفكيرهم الأعمى ، فعلى قولهم هذا يكون سيدنا عمر ابن الخطاب - عندما قطع شجرة الرضوان لأنه وجد هناك أناسا يعكفون عندها - ظالما - رحمك الله يا ابن الخطاب يا حامى حمى التوحيد الذى كاد أن يضيع تحت شجرة الرضوان : ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أى سمعنا فتى يتوعدهم : ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ أى نسمع أن اسمه إبراهيم : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ ونشطت الشرطة فى القبض على هذا الإرهابى الذى يريد أن يكون جماعة لقلب نظام الحكم وتم القبض عليه ولكن لم يتم إعدامه أو إلقاؤه فى المعتقل ، أو وضعه فى زنزانة ، ولم يتم القبض على زوجته ولا على أتباعه مع أنه زعيمهم وقائد الجناح العسكرى فيهم ، ولكن العدالة فوق كل شيء فأتوا به على أعين الناس محاكمة علنية فى الهواء الطلق ، وبجانب آلهتهم لعلهم يشهدون أى ليكون على مشهد من الناس ففى قانون النمرود الكافر الذى يتحدى الله بقوله : ﴿ أن أحيى وأميت ﴾ المتهم برئ حتى تثبت إدانته وقانون بعض الأنظمة العربية التى تدعى الإسلام . المتهم مدين حتى تثبت براءته ديمقراطية فى الحكم وضلال فى العبادة : ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا ﴾ وأشاروا إلى آلهتهم المحطمة : ﴿ بآلهتنا ﴾ يا مجرم ، طبعا لا ، يا إرهابى طبعا لا : ﴿ يا إبراهيم ﴾ ؟ سؤال كله أمان واطمئنان ليس فيه تهديد ولا وعيدا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ اى أنت كسرت وحطمت آلهتنا يا إبراهيم ؟ أى ليس هناك تلفيق تهم ولاتزوير فى الظلام . إنها محكمة علنية عادلة وطبعا الذى وجه السؤال إلى المتهم إبراهيم ، إما أن يكون القاضى وإما النمرود نفسه .

وإبراهيم يقف بمفرده وسط هذه الحشود الهادرة التي تريد أن تنقض عليه ولكن الشرطة تمنعهم من الاقتراب منه حتى يقول القاضي كلمته والكل ينتظر الإجابة : ﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وأشار إلى الصنم الكبير رد كله استهزاء واحتقار لهم ولسؤالهم ، أى الذى فعل هذا كبيرهم لأنه أبى أن تعبد هذه الآلهة الصغيرة معه ، وهو الإله الكبير فغار عليهم وحطمهم ، والدليل على ذلك وجود الفأس فى رقبته : ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ يقولون إن الذى حطمنا الإله الكبير ليقوم بسحقهم مرة أخرى ، وهذا ليس بكذب من إبراهيم بقوله بل فعله كبيرهم هذا لأن ذلك من المعاريض ، مثل أن تكتب كتابا قيما فيراه الجاهل فيقول لك أأنت كتبت هذا ؟ فتقول له بل أنت الذى كتبته . فهو رد تبكيت - روى البخارى والترمذى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لم يكذب إبراهيم النبى فى شئ قط إلا فى ثلاث قوله - إنى سقيم - وقوله لسارة أختى - وقوله بل فعله . وقال يقول الشيخ عبد الوهاب النجار صاحب كتاب قصص الأنبياء فى ذلك : فهو ينفى الكذب عن سيدنا إبراهيم عليه السلام من وجوه .

رأى المؤلف فيما ورد عن كذب إبراهيم :

١ - إن إبراهيم نبى كريم ومن أخص الصفات الواجبة للأنبياء الصدق .

٢- إن الله سبحانه وتعالى يقول : واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾ فقد رأيت الله فى هذه الآية لم يكتف بإسناد الصدق إليه بل عبر عن ذلك بصيغة المبالغة والصديق من خلقه الصدق .

٣ - قال الله تعالى : ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ وما كنت لأسمح لنفسى بأن أسلك إبراهيم فى سلك الذين لا يؤمنون بآيات الله بنسبة الكذب إلى إبراهيم ، لأن أقل ما فيها أن أسيئ الأدب فى حق إبراهيم عليه السلام .

٤ - قال الله تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ وما كان الله ليجتبى كذابا ولا من الهداية إلى الصراط المستقيم أن يكون المهدى كذابا .

٥ - يقول الله سبحانة وتعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ وما كان الله ليأمر خاتم أنبيائه باتباع ملة رجل كذاب .

٦ ـ قال الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ وليس من رشد الرجل فى شىء أن يكون كذابا .

٧ـ بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى إبراهيم وما حاج به قومه وذكر معه سبعة عشرة نبياً قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فهل كان الله تعالى يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالاقتداء برجل كذاب .

٨ ـ قال الله تعالى فى إبراهيم : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية إن الله حببه إلى الناس حتى أن أرباب الملل الأخرى يتولونه ويثنون عليه .

٩ ـ وقال تعالى : ﴿ رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية ، وفقنى للكمال فى العمل لأنتظم به فى عداد الكاملين فى الصلاح الذى لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره .

١٠ ـ قال الله فى إبراهيم : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ أى أبقينا له دعاء الناس فى الزمن الباقى وتسليمهم عليه أمة بعد أمة وسلامهم الحسن وثناؤهم عليه فأى ثناء حسن يبقى لرجل كذاب قارف الكذب ثلاث مرات ؟

١١ ـ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أيكون المؤمن جبانا ؟ قال نعم . قيل أيكون بخيلا ؟ قال نعم . قيل أيكون كاذبا ؟ قال لا ، والكذاب جرئ على الله جبان أمام الناس فهو يستخفى من الناس بكذبه ويجابه الله بلا حياء وما كنت بالذى يصم إبراهيم بذلك .

وقد نص بعض العلماء على أن الحديث إذا كان روايته رواية آحاد وفيه نسبة المعاصى أو الكذب على الأنبياء يرد . وقد جاء فى حاشية شرح العصام على العقائد النسفية قوله ـ فما كان منقولا بطريق الآحاد سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصى إلى الأنبياء * :

---

* المؤلف زج بنفسه فى متاهة هو فى غنى عنها فالحديث : « لم يكذب إبراهيم رواه البخارى ومسلم ، وأصبح الأحاديث ، وما أتفق عليه الشيخان .

ما رأى المؤلف فى حديث متفق عليه عن أم كلثوم ـ رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً » وزاد مسلم : قالت أم كلثوم : « ولم أسمعه يرخص فى شئ مما يقول الناس إلا فى ثلاث : يعنى الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امراته ، وحديث المرأة زوجها » وقد استدل العلماء بجواز الكذب على الحديث ، وفي الأثر : إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب .

وقد ذكر الإمام النووى فى كتابه : « الأذكار » أن الكذب وإن كان أصله محرما إلا أنه يجوز بشروط : فالكلام وسيلة إلى المقاص ، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه ، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب » .

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ ومضة من نور أضاءت عقولهم فجأة : ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ فى اتخاذ هذه الأصنام آلهة مع أنها لم تستطع أن تدافع عن نفسها ، فهذه الومضة لم تستمر طويلا ، فخاف إبليس من أن تصبح الومضة شعلة تنير قلوبهم وتهديهم إلى الصراط المستقيم ، فإبليس يخاف على منطقة نفوذه المظلمة من أن يخترقها نور الإيمان فقام بطمسها في مهدها ، وقد جاء رجل إلى الإمام أبى حنيفة وقال له : إنى وضعت كيساً به نقود لى وقد ضللت مكانه » ، فقال له الإمام أبو حنيفة : إن هذا ليس بدين وسوف أحتال لك حيلة - إذا صليت العشاء فاقرأ بعضا من القرآن ثم اذكر الله ثم صل على النبى صلى الله عليه وسلم ولا تنم وكن على هذه الحال حتى تصبح ، ففعل الرجل كما أمره الإمام أبو حنيفة فلم يستمر طويلا فى ذكر الله حتى تذكر الكيس وعرف مكانه ثم نام بعد ذلك ، وفى الصباح قابل الإمام أبا حنيفة فقال للرجل ماذا فعلت فى ليلتك ؟ فقال الرجل فعلت كما أمرتنى ولم أستمر فى ذكر الله طويلا حتى تذكرت مكان الكيس . فقال له أبو حنيفة وماذا فعلت فى بقية الليل ؟ قال الرجل : نمت بعد ذلك فقال له الإمام : ليتك أكملته فى ذكر الله فإن إبليس لم يشأ أن يتركك تستمر فى ذكر الله طوال الليل فعرفك مكان الكيس لكى تنام : ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أى رجعوا إلى ضلالهم .

إبراهيم يقرع قومه بالحجة :

﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ لقد لزمتهم الحجة وانتصر إبراهيم عليه السلام ، فقد استدرجهم حتى يقولوا بألسنتهم بأنهم لا ينطقون فلم تعبدونهم إن كانوا لا ينطقون : ﴿ قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾ وقف إبراهيم بمفرده أمام هذا الحشد الهادر المتربص لقتله مستعينا بالله تعالى واثقا من نصره وتأييده ، والذى مع الله لا يخاف الناس ، فإن كنتم تعلمون بأن آلهتكم لا تنطق ولا تنفع ولا تضر فلم عبدتموهم من دون الله ؟ ﴿ أف لكم ﴾ أى بصق عليهم وعلى معبوداتهم التى لم تستطع حماية نفسها ولا تنطق باسم الذى حطمها . أليس لكم عقول تفكرون بها ؟ وهنا قامت القيادة العسكرية الغاشمة بالانقلاب على القيادة السياسية العادلة . وقام حكم العسكر واختفت الديمقراطية والعدالة وتحكمت الآلة العسكرية وسيطرت على مقاليد الحكم ، وعلى العقول ، فالسلطة العسكرية لا تتحمل مناقشة هذا الإرهابى بالعقل والحجة ، ولكن لابد من استعمال القوة معه والقضاء عليه بسرعة لئلا يؤثر فى نفوس الرعية فتميل معه إلى الحق ، هل هذا الإرهابى الذى يريد أن يكون جماعة لقلب نظام الحكم وهو قائد الجناح العسكرى فيهم

نناقشه بمثل هذا الأسلوب الهادئ اللين - أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ ومثل : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون - ويستهزئ بعقولنا بقوله بل فعله كبيرهم هذا - ثم تميل القيادة السياسية بقولهم نحن الظالمين - ثم يحق علينا وعلى آلهتنا ثم صدر الحكم العسكرى بأقصى أنواع العذاب .

محاكمة الخليل إبراهيم :

﴿ قالوا حرقوه ﴾ ولم تقل المحكمة العسكرية احرقوه ولكن حرقوه أى أشعلوا النيران وأكثروا فيها الحطب حتى تصبح قطعة من جهنم : ﴿ وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ هذا كلام المحكمة العسكرية - انصروا آلهتكم - من ينصر من ؟ الخالق ينصر المخلوق أو المخلوق ينصر الخالق . ولكن ماذا نقول فى حماقة القوة العسكرية . هذا فى القديم وكما نسمع الآن فى العصر الحديث من شعوب لا تمت بصلة إلى الإنسانية من قريب أو بعيد . وذلك بقولها للحاكم - بالروح والدم نفديك يا - وهل يعيش الحاكم بمن - ومثل : « نموت نموت ويحيا الملك » وهل يعيش الملك بمن إذا كان الشعب مات فداء للحاكم فهل هذه شعوب تستحق الحياة ؟ هذه شعوب بطن الأرض خير لها من ظهرها - وربما يقول الحاكم والله أعلم وهو يلوح لهم بيديه . مرحبا مرحبا يا غنمى . ومن شدة حرارة النيران لم يستطيعوا الاقتراب منها ليدفعوا إبراهيم فيها إنما وضعوه فى المنجنيق وقذفوا به إلى النار من بعد وقبل أن يصل إبراهيم إلى النار كانت سبقته كلمة التكوين : .

﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ ولو قال كونى بردا لأهلكه بردها ولكنه تقدير العزيز العليم . ونقول إن القيادة العسكرية إذا سيطرت على مقاليد الحكم من القيادة السياسية تصبح تصرفاتها عمياء خرقاء رعناء جامحة مندفعة تضرب يمينا وشمالا كالثور الهائج ، وفى النهاية تتم هزيمتها وسيأتى بيان ذلك فى قصة سيدنا سليمان . إن شاء الله لأنها لا تسمع لا تأخذ بالرأى الآخر : ﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ أى حرقه ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أخسرين فى أعمالهم وفى تدبيرهم ودنياهم وأخراهم وانهزمت القيادة العسكرية عندما رأوا إبراهيم يخرج من النار سالما وكانت مفاجأة ماحقة للقيادة العسكرية خلعت نفوسهم وطأطأت رؤوسهم ، فما استطاعوا أن يصبروا على رؤية هذا المنظر بل أخذوا يتوارون عن أعين الناس خجلا وخزيا وانكسارا ، وكادت الجماهير تؤمن برسالة إبراهيم فقامت السلطة التى تقلدت الحكم بالسماح لإبراهيم بعد خروجه من النار سالماً بأن يسافر هو وقومه إلى بلد

يريدها ، وذلك خوفا على سلطانها : ﴿ ونجيناه ولوطا ﴾ أى نجينا إبراهيم من النار وابن أخيه لوطا عليهما السلام : ﴿ إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ وهى أرض الشام على أكثر الأقوال وكانوا هم بالعراق والشام معروفة على مر التاريخ بخيراتها وزروعها وأنهارها وفيها الأرض المقدسة وثالث الحرمين الشريفين ، ومنها ظهر أكثر الأنبياء .

ملاحظة . . إن كلمة الشام قبل التقسيم الذى قامت به بريطانيا كانت تضم - سوريا - لبنان - فلسطين - الأردن : ﴿ للعاملين ﴾ أى كل من يقطن بها يناله من خيراتها الشى الكثير : ﴿ ووهبنا له إسحاق ﴾ من سارة زوجته : ﴿ ويعقوب نافلة وكلا جعلنا من الصالحين ﴾ أى وكلا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلنا صالحا عاملا بطاعته الله : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ أى رؤساء وعلماء يقتدى بهم فى فعل الخيرات وأعمال الطاعات بأمرنا أى بما أنزلنا عليهم من الوحى من أمر ونهى ويقومون بإرشاد الناس إلى التوحيد الخالص : ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ من الصلاة والزكاة والصيام وحج البيت والصدقات بأنواعها : ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ أى مطيعين : ﴿ ولوطا آتيناه حكما وعلما ﴾ حكما أى الرسالة وعلما أى الفهم فى توضيح الرسالة : ﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾ وقرية مفرد قرى وهى سدوم بشرق الأردن وتتبعها قرى كثيرة وكل مدينة تسمى قرية إلا مكة فهى تسمى أم القرى ، والخبائث هنا اللواط وكانوا يستعملون الرجال بدلا من النساء : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ أى خرجوا عن أعمال الفطرة السليمة إلى أعمال الفسق : ﴿ وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين ﴾ أى أدخلناه فى زمرة النبيين وهو من الصالحين .

قصة الخليل من خلال سورة الصافات :

وقال تعالى فى سورة الصافات الآية ٨٣ - ١١٣ : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ فقد ذكر الله قبله بعضا من قصة نوح عليه السلام أى أن إبراهيم سائر على دين ومنهاج نوح لأن بينهما صلة العقيدة والدعوة على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين ، وكان بينهما سيدنا هود وسيدنا صالح : ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾أى خالصا لله موحدا صادقا فى عبوديته لله تعالى : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ فهى كلمة استنكار كما تقول لجماعة يعملون عملا خاطئا - على سبيل الاعتراض - ماذا تفعلون ؟ ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ أى تريدون آلهه تعبدونها من صنع أيديكم من دون الله ؟ ﴿ فما ظنكم برب

العالمين ﴾ أى ما ظنكم إذا لقيتم الله يوم القيامة بعبادتكم الأصنام : ﴿ فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم ﴾ أى نظر إلى السماء بنجومها ومجراتها وقومه يعبدون أحجارا من دون الله خالق هذا الكون ، وكل نبى يدعو قومه إلى الإيمان ولا يستجيبون له تكون فى قلبه مرارة وضيق صدر ، فهو فى هذه الحالة سقيم ، بل وكل عالم داعية إلى الله يرى ما فى مجتمعه من الفواحش والرذائل والموبقات ترتكب جهارا نهارا فى الشوارع والأندية وفى المصايف ، وما تبثه وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية تفتت قلب كل مؤمن يغار على دين الله .

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فلعلك باخع نفسك على ألا يكونوا مؤمنين ﴾ أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحزن على قومه لعدم إيمانهم وكل نبى يدعو قومه إلى عبادة الله بقوله - يا قوم - يا قوم - يا قوم - وهم يصدون عن دعوته أليس هذا يسبب للداعى سقما وألما ومرضا نفسيا للأنبياء والداعين إلى منهج الله فعندما يقول سيدنا إبراهيم : ﴿ إنى سقيم ﴾ فليس هو كذابا بل هو سقيم حقا : ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ أى راجعين من أماكن أصنامهم بعد أن قربوا لها الطعام والثمار لتباركها لهم : ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ أى ذهب إليها خلسة : ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ أى تهكما بهم : ﴿ ما لكم لاتنطقون ﴾ بغيظ وضيق وهو يعرف أنهم لايأكلون ولاينطقون وبدأ فى إفراغ شحنة الغضب التى سببت له السقم : ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ واليمين هى القوة وضربها موثر ليشفى غليله من هذه الأصنام : ﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾ وتحققوا من أنه هو الفاعل لأنه دائما يسبهم ويحتقرهم ويتوعدهم ويندد بعبادتهم ويستهزئ بعقولهم الضالة وأقبلوا جماعات ووحدانا يزفون من الزف وهو الإسراع والتجمهر والقرآن لم يذكر سؤالهم لأن السؤال سبق أن ذكر فى سورة الأنبياء وهو : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم : ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ أى أنتم تنحتون من الحجارة أصناما ثم تعبدونها : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ أى هو الله الذى خلقكم وخلق ما تعملون فهو خالق الحجارة التى تنحتونها والأخشاب التى تبرونها أى من البرى - وقد روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خالق كل صانع وصنعته » ذكره الثعلبى وأخرجه البيهقى : ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ أى ابنوا له حوائط من أربع جهات واملأوها حطبا وأشعلوا النار فيها ثم ألقوه فيها ليهلك ونرتاح من تهكمه وسخريته بنا وبآلهتنا : ﴿ فأرادوا به كيدا فجعلناهم الآخسرين ﴾ المغلوبين المقهورين بسبب قوة حجته عليهم فلم يستطيعوا ردها ولذلك استعملوا معه القوة الغاشمة التى يلجأ إليها العاجزون ورد كيدهم فى

نحورهم وخرج من النار سالما : ﴿ قال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ أي إني مهاجر ربي وتارك ورائي أبي وقومي وأهلي وبلدي بما فيها من أصنام وأوثان أذهب إلى ربي بعقيدتي وإسلامي وسيهديني إلى قوم أمكث بينهم وأدعوهم إلى عبادة الله ولما كان إبراهيم إلى هذا الوقت وحيدا توجه إلى الله بأن يرزقه ذرية صالحة يؤنس بها وحشته : ﴿ قال رب هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم ﴾ وهو إسماعيل أبو العرب من زوجته هاجر : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي كبر وسعي مع أبيه للصيد ليأتيا بطعامهم : ﴿ قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ لقد كان اختبارا قويا يتناسب مع درجة الإيمان واستطاع معه إبراهيم أن يفوز بأسمى لقب في الوجود ألا وهو الخلة أي خليل الرحمن شيخ بلغ من السن عتيا ترك أهله وعشيرته ووطنه وفي واد غير ذي زرع يجد الشيخ ما يبدد وحشة الصحراء في غلام بلغ معه السعي ولكن رؤية الأنبياء حق ووحي من الله تعالى فإن يكن الولد سيموت فإن الآجال بيد الله أما أن يمسك الأب السكين ليمررها على رقبة ابنه فهذا الأمر يحتاج إلى قلب لم يترك فيه الإيمان فراغا لشئ آخر وأما الأمر بإعدام الولد وبالطريقة التي بها الأمر وتعود الصحراء القاحلة الموحشة بسكونها وقد غاب الولد الحبيب فهذا أمر شديد على النفس إلى الأبد ولكن ماذا قال الولد لأبيه : ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ لم يقل افعل ما بدا لك ولكن قال افعل ما تؤمر لأنه يعلم بأنه أمر من الله لامجال للتردد في تنفيذه وإن الولد المستسلم للسكين والذبح لايقل في روعته عن موقف الوالد المستسلم لأمر لابد من تنفيذه إن الإنسان مهما بلغ مرتبة الأنبياء فهو إنسان لأن النبوة لاتخرجه عن إنسانيته ، ولهذا سالت الدموع من عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده إبراهيم يجود بانفاسه بين يديه وهو يقول : إن العين تدمع والقلب يحزن ولانقول ما يغضب الرب وإنما نقول وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون ، ولهذا فإن كل ما استطاع إبراهيم عليه السلام أن يملكه ليخفف عن نفسه بعض الشئ هو أن يبعد وجه ولده عن عينيه وهو يتقدم لذبحه فجعل وجه الولد إلى الأرض : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ تله - صرعه اجتاز الولد ووالده الامتحان الكبير وجاءت رحمة الله تعالى في وقتها المعلوم : ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ لأن الله يعلم أن هذا الولد الذي استسلم لقضاء الله وأمره وتقدم في إيمان ليذبح سيكون من ذريته سيد ولد آدم وإمام الأنبياء والمرسلين .

إننا عندما نتصور هذا الموقف العظيم من مواقف الإيمان يتضاءل إيماننا أمام أعيننا ولولا إيماننا بأن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء لقلنا إننا لسنا على

شئ : ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه في الآخرين * سلام علي ابراهيم ﴾ وهذا ما درج عليه المسلمون فى عيد الأضحى ذكرى لجدهم إسماعيل : ﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ نجزيهم على وفائهم وتنفيذهم لأمر الله : ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ أى الصابرين المطيعين لله ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ أى من ذرية إبراهيم وإسماعيل وإسحاق منهم محسن فى عمله وعقيدته التى ورثها من آبائه وأجداده ومنهم ظالم لنفسه بعدم اتباع الأنبياء ،ولا ينفعه أنه من ذرية الأنبياء مثل ابن سيدنا نوح .

وفي سورة العنكبوت الاية ١٦ : ٣١ يقول تعالى : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أى أفردوه بالعبادة وقدسوه واتقوا أى خافوا عذاب بطشه إن تمسكتم بعبادة هذه الأصنام : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ﴾ أى أصناما وتنحتون كذبا : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا ﴾ فالرازق هو الله وهو خالق الحجارة التى تنحتونها بأيديكم ثم تعبدونها من دون الله : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ أى اطلبوا الرزق من عند الله فهو الرازق الكريم : ﴿ واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ أى اعبدوه وحده واشكروا له إذ يرزقكم من السماء والأرض ولابد من أنكم راجعون إليه ويجازيكم على عملكم هذا : ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ يعنى قوم صالح وقوم هود عليهما السلام ومن قبلهم قوم نوح عليه السلام : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ وما علىَّ إلا أن أبلغكم رسالة ربى وأبين لكم وأوضح لكم ما فيها من منافع ترجونها فى الدنيا والآخرة وفى الآية ٢٦ من نفس السورة يقول تعالى : ﴿ فآمن له لوط ﴾ أى لإبراهيم : ﴿ وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ﴾ ولوط هو ابن اخيه على أكثر الأقوال : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ أى وجعلنا أكثر الأنبياء من ذريته وجميع الملل تدعو له : ﴿ وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى من النبيين أولى العزم : ﴿ ولوطا إذا قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ وهى فاحشة الفواحش أى اللواط وهذه الفاحشة لم يعملها أحد من قبلكم لأنها منافية للفطرة السليمة : ﴿ ائنكم لتأتون الرجال ﴾ أى تفعلون بالرجال ما تفعله الفطرة السليمة بالنساء : ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ أى تقفون على الطرقات فإذا مر رجل فعلتم به الفاحشة : ﴿ وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾ أى تفعلون الفاحشة فى مجتمعكم ويرى بعضكم بعضاً : ﴿ فما كان جواب قومه

﴾ أى ردهم على نبيهم لوط : ﴿ إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ هذا التبجح الوقح الذى لايخشى الإنذار : استعجل لنا عذاب الله إن كنت صادقاً فيما تقول ، فلم يبق أمام سيدنا لوط إلا أن يطلب النصر من الله : ﴿ قال رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ مفسدين فى فطرتهم في عبادتهم في أخلاقهم صبراً يا لوط فالنصر مقبل فى الطريق : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ وجاءت ملائكة العذاب وهم فى طريقهم إلى لوط عليه السلام لتنفيذ ما أمرهم الله به إبراهيم عليه السلام ليبشروه بمولود : ﴿ قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ أى أهل القرية التى يسكن بها لوط لأن أهلها كانوا ظالمين بإتيانهم الفواحش القذرة : ﴿ قال إن فيها لوطا ﴾ لأنه خاف على ابن أخيه من الهلاك الذى سينزل بهم : ﴿ قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴾ نحن رسل الله أدرى بمن فيها من الصالحين والظالمين : ﴿ لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أى لاتخف على لوط ومن معه سنجعل لهم سببا للنجاة ولكن امرأته ستكون من الهالكين ـ وفى أواخر سورة التحريم يقول تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ أى بعد عذاب الدنيا وموضوع الخيانة هنا خيانة فى الدين كله لا فى العرض أى أنهما كانتا مؤمنتين ظاهرا كافرتين باطنا على هوى قومهما وأما امرأة فرعون فكانت كافرة ظاهرا مؤمنة باطناً : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعاً فقد تجمع اللوطيون حول بيته وهم فى سعار يريدون الهجوم على بيت لوط لأنهم علموا ويقال إن امرأته أخبرت قومها بهم وأنهم كالقمر وضاءة ، وهو خائف على ضيوفه فى هذا الكرب : ﴿ وقالوا لاتخف ولاتحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ أى المغبرة وجوههم بغضب الله مثل قوله تعالى فى سورة عبس : ﴿ وجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ وهنا ذهب عن لوط الخوف والحزن : ﴿ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ سينزل بأمر من الله على هذه القرية حجارة من السماء بسبب ما كانوا يفسقون : ﴿ ولقد تركنا فيها آية * بينة لقوم يعقلون ﴾ أى تركنا فيها آثاراً باقية لتكون عبرة لكل من يعقل ويتدبر * .

وفى سورة هود الآية ٦٩ : ٨٣ يقول تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ رسلنا أى الملائكة

* أى قرية سدوم التى تسمى الآن شرق الاردن بلد سيدنا لوط عليه السلام .

والبشرى لم تظهر الآن ولم يأت وقتها قالوا سلاماً أى السلام عليكم قال سلام أى وعليكم وعلى عادته فى إكرام الضيف أى فما غاب كثيرا إلا وأتى بعجل حنيذ أى سمين ولابد أن تكون الملائكة أكثر من خمسة أو ستة حتى إنه جاء لهم بعجل صغير سمين والضيافة من مكارم الأخلاق ومن آداب الإسلام وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه : ﴿ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ﴾ أى إلى الطعام يعنى امتنعوا عن الأكل لأن الملائكة لا تأكل ولاتشرب : ﴿ نكرهم وأوجس فى نفسه خيفة ﴾ أى أحس فى نفسه بأنهم ينوون به شراً لأن الذى يمتنع عن أكل طعامك بعد أن جهزته وقربته إليه لابد من أنه ينوى بك غدراً وخيانة وهنا أزاحوا عن قلبه الخوف : ﴿ قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ أى أنهم مرسلون من الله لهلاك قوم لوط لارتكابهم الفاحشة : ﴿ وامرأته ﴾ أى امرأة إبراهيم : ﴿ قائمة ﴾ لخدمتهم ﴿ فضحكت ﴾ فرحاً وسروراً لهلاك هؤلاء المفسدين : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ وهم فى طريقهم إلى قرى لوط مروا مروراً بإبراهيم وبشروه بهذه البشرى : ﴿ قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ﴾ فهى فرحت بتعجب لأنها عجوز عاقر وزوجها إبراهيم أصبح شيخاً مسناً : ﴿ إن هذا لشئ عجيب ﴾ وهو أمر عجيب حقاً لأن فى هذه السن المتقدمة لايفكر الرجل أو المرأة فى الإنجاب : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ يعنى أيأخذك العجب من قدرة الله الذى يقول للشيء كن فيكون : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ والبركة هى النمو والزيادة ،من تلك البركات إذ جعل من ذريتهما النبوة إنه حميد مجيد أى محمود فى السماء والأرض مجيد من المجد لله : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ وجاءته البشرى بإسحاق ومن بعد إسحاق يعقوب وقد اطمأن : ﴿ يجادلنا فى قوم لوط ﴾ أى يجادل الملائكة الذين هم مكلفون بأمر الله بهلاك قرى قوم لوط : ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ حليم يؤذيه هلاك هذه القرى أواه كثير التضرع إلى الله منيب رجّاع إلى الله : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ أى اترك هذا الجدال فلا فائدة فيه : ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ أى قضى ونفذ الأمر فلا فائدة فى الجدال : ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ أى نازل بهم عذاب لن يستطيعوا رده : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا ﴾ أى وصلت رسلنا إلى قرى لوط ودخلوا عليه كضيوف فلم يجد حيلة لإخفائهم عن أهل القرية ، ولما رأى جمالهم وإشراق وجوههم : ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ أى شديد الهم والضيق : ﴿ وجاءه قومه يهرعون

إليه ﴾ وسمع رجال القرية بهؤلاء الضيوف وأسرعوا الخطى إلى بيت لوط : ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ أى قبل مجيئهم إلى بيت لوط كانوا منهمكين في عمل الفواحش : ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ وفي رواية عن مجاهد وسعيد بن جبير أشار بقوله هؤلاء بناتي إلى النساء جملة إذ نبي القوم أب لهم .

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوى في كتابه قصص الأنبياء الجزء السابع بأنه يجوز للكافر أن يتزوج مؤمنة واستند على ذلك بقوله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج ابنة له من عتبة بن أبى لهب وهوكافر وزوج أخرى من أبى العاص بن الربيع وهو كافر قال وكان هذا قبل الإسلام وأنا أوافق فضيلته فى هذا الرأى لأن المجتمع فى مكة كله كان على زمن الفترة فلما زوج محمد بن عبد الله ابنته إلى ابن عمه أبى لهب لم يكن عتبة فى هذا الوقت كافرا وكذلك أبو العاص ابن الربيع لم يكن كافرا لأنه لم يكن هناك إسلام أو شريعة تحكم النكاح فى هذا الوقت فلما جاء الإسلام وأسلمت خديجة رضى الله عنها وأسلمت بناتها وبدأت العداوة تدب بين أبى لهب وزوجته أم جميل من ناحية ، وبين رسول الله وزوجته خديجة من ناحية أخرى وكانت تلقى القاذورات أمام بيت رسول الله وكانت تسب خديجة رضى الله عنها وكان رسول الله يطلب من زوجته خديجة الصبر وعدم الرد عليها فلما أنزلت سورة المسد بعد نزول سورة الفاتحة مباشرة وجاء فيها قوله تعالى: ﴿ وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾ استشاطت جميلة غضبا وقالت لزوجها أبى لهب : والله لايظلني سقف وبه بنت محمد الذى وضع فى يدى حبلا من نار وأمرت ابنها عتبة بطلاقها ولم يكن قد دخل بها فلا نقول : إن محمدا رسول الله زوج ابنتين من بناته الكافرين ، إنما نقول إن محمدا زوج بنته لعتبه ابن عمه أبى لهب وزوج الأخرى إلى أبى العاص، ولم يكونا كافرين لأنه لم يكن فى هذا الوقت رسول ولا رسالة لأن هناك فرقا بين محمد بن عبد الله ومحمد رسول الله وفى أى شريعة ربانية من لدن آدم عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام يجوز فيها زواج الكافر من مؤمنة ولوط عليه السلام مسلم وبناته مسلمات فكيف يجوز للوط أن يزوج بناته الكافرين : ﴿ فاتقوا الله ولا تخزونى فى ضيفى ﴾ أى خافوا الله ولا تفضحونىَ وتذلونى أمام ضيوفى ، أليس منكم رجل رشيد ؟ ولكن الشهوة البهيمية الحادة والفورة الشاذة فى اندفاعها المحموم ، وخصوصاً عندما رأوا هذا الجمال الذى لم يروا مثله من قبل : ﴿ قال لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أى يريدون ضيوفه ليفعلوا بهم الفحشاء : ﴿ قال لو أن لى بكم قوة ﴾

لأدفع هذا الوباء : ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ أى إلى مكان محصن أو جماعة أقوياء يحمونني منكم وفى هذه الشدة كان لوط عليه السلام من داخل الباب يحاول منعهم من الدخول فلما رأى الملائكة حال لوط وقد أجهدته المدافعة ولم يبق في القوس منزع وهنا كشفت الملائكة عن هويتهم وكأنى بلوط عليه السلام يقول :

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لاتفرج

: ﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك ﴾ أى نحن لسنا بشرا إنما نحن ملائكة مرسلون من عند الله : ﴿ لن يصلوا إليك ﴾ فاتركهم وأرح نفسك فإنهم لن يستطيعوا الدخول وأخذ جبريل بعضا من التراب فألقاه على وجوههم فأصابهم الغشيان فلم يعرفوا الطريق إلى بيوتهم وهم يصيحون النجاة النجاة !! إن فى بيت لوط سحرة سحرونا فأعموا أبصارنا : ﴿ فاسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ أى والسرى يكون بالليل لقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ﴾ أى اخرج أهلك جماعة ببعض من الليل فإن في الصبح سيكون هلاكهم وطلب لوط من الملائكة نزول الهلاك فوراً فقالوا له : ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أى لاينظر أحدكم إلى الخلف فإنها القيامة إنها الكارثة إنه الهول الذى ما بعده هول ، ومعنى لايلتفت منكم أحد حتى لايرى تلك المدن والقرى وقد اقتلعت من أساسها وارتفعت إلى عنان السماء ثم انقلبت فجاء عاليها سافلها : ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود ﴾ حجارة ضم بعضها إلى بعض وكانت امرأته كافرة باطناً مسلمة ظاهراً وإنها لم تسمع وصية زوجها والتفتت خلفها لترى ما يحيق بقومها فلما رأت هذا الهول والدمار صاحت واقواماه فأصابها حجر من تلك الحجارة فهلكت مع قومه وهنا ملاحظة فى جعل عاليها سافلها أى انقلبت قراهم كما انقلبت فطرتهم لنجسة وأمطرنا عليهم حجارة أى رجمناهم بالحجارة واللوطى حكمه حكم الرجم : ﴿ مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ أى معلمة باسم من سنلقى عليه فليتق الله كل ظالم طاغيه لايعدل فى رعيته وفى سورة الحجر الآية ٤٩ : ٧٧ : ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ الخطاب هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الناس أن الله واسع المغفرة واسع الرحمة وأن لايقنطوا من رحمة الله وقد جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : «أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار » ؟ فشق عليهم فنزلت الآية والآية تبدأ بالغفران والرحمة قبل العذاب : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ أى يا محمد

أخبرهم وقص عليهم نبأ ضيوف إبراهيم : ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون ﴾ أى خائفون لأنهم لم يأكلوا من الطعام الذى أتى لهم به إبراهيم : ﴿ قالوا لاتوجل ﴾ ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ نلاحظ هنا فى إسماعيل قال تعالى وبشرناه بغلام حليم ، من الحلم والأناة والهدوء وسلم نفسه للذبح مرضاة لله رب العالمين وفى إسحاق قال تعالى : ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم نبى يتلقى العلم من الله وهى الرسالة : ﴿ قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ﴾ ورد إبراهيم عليه السلام فيه رائحة القنوت تبشرونى بأنى بلغت من العمر الكثير ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ أى ولا تقنط من رحمة الله : ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ أى فلما بشروه بإسحاق على كبر السن يكون رحمة له ولزوجته : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ أى ما هى مهمتكم التى أرسلتم بها : ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ أى ضالين فاسقين ، أرسلنا الله إليهم لنهلكهم : ﴿ إلا آل لوط ﴾ بناته والمؤمنين به : ﴿ إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ ربما يقول قائل ما دام هناك قوم آمنوا بلوط عليه السلام فلماذا لم يدافعوا مع لوط نبيهم عن الضيوف ؟ نقول إن الذين آمنوا معه قليل ، وماذا يفعلون وسط هذا الطوفان المتوحش : ﴿ إلا امرأته قدرناها إنها لمن الغابرين ﴾ أى عددناها من المغبرة وجوههم بغضب الله : ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ أى فلما جاءت الملائكة إلى قوم لوط ﴿ قال إنكم قوم منكرون ﴾ أى لا أعرفكم قبل ذلك فأنتم غرباء وأخشى عليكم من هؤلاء القوم الفاسقين : ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ أى جئناك بالعذاب الذى سينزل بهم وكانوا يزعمون أن الله لايعذبهم بأفعالهم القبيحة النجسة : ﴿ وآتيناك بالحق وإنا لصدقون ﴾ والحق هو أمر الله بتدميرهم وهم صادقون فى ذلك لتنفيذ الأمر : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ أى كل جماعة تخرج ببعض من الليل أى لاتخرجوا كلكم مرة واحدة حتى لايشعروا بكم فيعتدوا عليكم : ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ يعنى سر خلفهم وراء آخر فوج منهم : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ يعنى لاينظر أحدكم إلى الخلف حتى لايرى ما سينزل على هذه القرى من العذاب فيموت من الصدمة : ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ وهنا لم يفصح القرآن عن المكان الذى سيتجهون إليه : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ أى الأمر بهلاكهم : ﴿ إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ أى مقطوع دابرهم صباحاً ولايبقى منهم أحد : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ وهذا قبل نزول العذاب سمعوا بوضاءتهم وحسنهم فرحين بهم : ﴿ قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ﴾ أى لاتفعلوا فيهم الفاحشة فى بيتى : ﴿ واتقوا الله ولاتخزون ﴾

اى خافوا الله ولا تذلوني أمام الناس إن فعلتم في ضيوفي الفحشاء : ﴿ قالوا أولم ننهك عن العالمين ﴾ أى ألم نحذرك من استضافة الغرباء : ﴿ قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ﴾ سبق معناها بأنهم لايريدون إلا الضيوف : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ أى وحياتك يالوط لنأخذنهم فى سعارهم الهابط بضيوفك وعمى بصيرتهم واعوجاج فطرتهم : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ فأخذهم العذاب عند شروق الشمس عندما بدأوا يسعون إلى مصالحهم : ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ : ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ أى فى هذه الحادثة عبرة للمتبصرين المتفكرين فى سنن الله الكونية . روى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ أى قرى قوم لوط المدمرة وهى على طريق قومك يامحمد فى تجارتهم إلى الشام : ﴿ إن فى ذلك لآيات للمؤمنين ﴾

وجاء فى سورة الذاريات الآية ٢٤ : ٣٧ قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ يريد الله سبحانه وتعالى أن يقص على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام بعضاً من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول له هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين طبعاً لم يأته هذا الحديث قيل عن المكرمين : يجوز أن تكون هى صفاتهم عند الله مثل قوله تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ ويجوز أن تكون كلمة المكرمين أى المكرمين عند المضيف الذى يقوم بخدمتهم . إذ دخلوا عليه أى أن الملائكة دخلوا على إبراهيم : ﴿ فقالوا سلاما ﴾ أى ألقوا عليه السلام وهى تحية الإسلام : ﴿ قال سلام ﴾ أى رد عليهم وهو تحية المسلمين من لدن أبيهم إبراهيم عليه السلام ، ولكن أغلب المسلمين الآن فى هذا العصر النكد نسوا التوجيه الإسلامى فأصبحت تحية هؤلاء كتحية اليهود والنصارى مثل صباح الخير ومساء الخير وهاللو وباى باى : ﴿ قوم منكرون ﴾ أى غرباء لم نر كم قبل ذلك فوجود الملائكة عند ابراهيم عليه السلام كانوا فى صورة آدميين عاديين أما عند وصولهم إلى لوط كانوا فى أبهى صورة وأجمل منظر لكى يهيجوا قوم لوط ليندفعوا إليهم ، وليرى الملائكة دفاع لوط عنهم وكان ما جرى لهم من العذاب الذى ذكر فى سورة العنكبوت : ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ أى انسل منهم خفية إلى زوجته لتطهو لهم الطعام فجاء بعجل سمين لأن الضيوف مكرمون : ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ قالوا لاتخف أى اطمئن فإننا ملائكة لانأكل ولانشرب : ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ أى بإسحاق عليه السلام : ﴿ فأقبلت امراته فى صرة ﴾ أى فى صيحة لترى ما يدور بين زوجها وضيوفه ،

مثل قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً عاتية ﴾ أى ريحاً مسرعة : ﴿ فصكت وجهها ﴾ أى ضربت بيدها على خدها تعجباً كعادة النساء إذا جاءتهن بشرى عجيبة : ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ كأنها تقول للملائكة عندما بشروا زوجها بغلام عليم ، ولكنى عجوز عقيم لاتلد : ﴿ قالوا كذلك قال ربك ﴾ أى هذه البشرى حق لأنها قول ربك إنه هو الحكيم العليم ، حكيم فيما يفعل عليم بمصالح خلقه : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ فعندما أفاق إبراهيم من نشوة البشرى وعلم بأنهم ملائكة سألهم ما شأنكم أيها المرسلون : ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ أى مهمتنا التى كلفنا بها إلى قوم مجرمين فاسقين أى قوم لوط : ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ اى لنرجمهم بها مسومة يعني معلمة باسم من ستنزل عليه : ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ أى جاهزة عند الله لرجم المسرفين الذين أسرفوا فى عمل الفواحش : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ أى فأخرجنا المؤمنين من قوم لوط لئلا يصيبهم العذاب النازل بهم : ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾

قال العلماء الإيمان تصديق بالقلب والإسلام : الانقياد الظاهر ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا ويؤيد ذلك قوله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾ أى لم يوجد فيها غير أهل بيت من المسلمين لأن أغلبية قومه كانوا كافرين : ﴿ وتركنا فيها آية ﴾ يعنى عبرة وموعظة للذين يخافون العذاب الأليم لأن الذى يخاف الله وعقابه يكون بمنأى من العذاب يوم القيامة .

وفى سورة الأعراف الآية ٨٠ : ٨٤ قال تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ أى لم يعمل أحد قبلكم هذه الفعلة الشنعاء : ﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾ والإسراف هو تجاوزهم منهج الله الممثل فى الفطرة السوية والإسراف فى الطاقة التى وهبها الله إياهم لأداء دورهم فى امتداد البشرية ونمو الحياة فإذا هم يريقونها فى غير موضع الإخصاب فهى مجرد شهوة شاذة لأن الله جعل لذة الفطرة السليمة فى تحقيق سنة الله الطبيعية فإذا وضعت هذه اللذة فى غير موضعها فهو الشذوذ والانحراف والفساد الفطرى وقد روى أبو داود وابن ماجة والترمذى والنسائى والدارقطنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ووجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» وزاد الترمذى أحصن أم لم يحصن : ﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾

أى أخرجوهم من قريتكم وما ذنبهم في أن يخرجوهم ويبقى فى القرية الأنجاس الملوثون بالفحشاء لأنهم أناس يتطهرون أى يتنزهون عن هذه النجاسات القذرة من عبادة الأصنام يتطهرون من الجنابة يتطهرون للصلاة يتطهرون من كل ما حرم الله ، ولهذا يجب أن يخرجوا فالباطل لايرتاح ولايطيق وجود الحق بجانبه وإن كان لايشاغبه فالحق يرضى أن يعيش بجانب الباطل ولكن الباطل لايرضى إلا بخروجهم : ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أى أنها كانت في تقدير الله أن تكون في سلك الغابرين المغضوب عليهم : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أى بعد انقلاب الأرض بهم ورجمهم بالحجارة أمطرنا عليهم مطراً ليطهر الأرض بهم ورجمهم بالحجارة أمطرنا عليهم مطراً ليطهر الأرض من دنسهم وفحشهم : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ كيف أهلكناهم ودمرنا وذلك عقاباً لهم فأرادوا هم أن يخرجوا المتطهرين فأخرجناهم ولكن إلى أين إلى جهنم وبئس المصير .

إبراهيم يقر بالإسلام ديناً

وفي سورة آل عمران الآية ٦٥ : ٦٨ يقول تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ أى اليهود والنصارى لأنهم أهل التوراة والإنجيل قبل أن يحرفوهما وهما الآن ليسوا أهل الكتاب بل هم مشركون ، ولكن الأنظمة العربية الضعيفة تسميهم أهل كتاب خوفاً من بأسهم : ﴿ لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تتقون ﴾ قال محمد بن إسحاق حدثنا محمد ابن أبى مولى زيد ثابت حدثنى سعيد بن جبير عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «اجتمعت نصارى نجران وأحبار اليهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده فقالت الأحبار ما كان إبرهيم إلا يهودياً وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً على أدعاءات الطرفين واحتكارهم الهداية والفضل فأكذبهم الله سبحانه وتعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ﴾ أى فى أمر رسول الله الذى يعلمون من صفاته الكثير التى جاءت فى كتبهم التوراة أو الإنجيل فأنكروا بالباطل : ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ أى دعواهم فى إبراهيم بأنه كان يهودياً أو نصرانياً فهو سابق على اليهود والنصارى بآلاف السنين ، إنما هو الجدال والمراء فى غير حق : ﴿ والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ فالله يعلم العلم الحقيقى للأشياء وأنتم لا تعلمون شيئا : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ وهنا يجابههم الله بالحقيقة بأن إبراهيم كن حنيفاً مسلماً أى مائلاً عن كل عقيدة إلا عقيدة الإسلام مسلماً لله فى كل أعماله وأقواله فى السر والعلن وأنه لم يكن من المشركين ، وهذا دليل على أن اليهود والنصارى مشركون لأن اليهود يقولون عزير ابن الله والنصارى تقول عيسى ابن الله فهم أشركوا اليهود مع الله أناسا مخلوقين فإذا كان الله يسميهم مشركين فكيف نسميهم نحن أهل كتاب : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ أى الذين آمنوا به فى حياته وساروا على نهجه هم أولياؤه ، وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين وإن محمداً والذين آمنوا معه هم أحق الناس

بإبراهيم والله ناصرهم على أعدائهم ما داموا على العهد سائرين .

وقد جاء فى سورة آل عمران الآية ٩٥ : ٩٧ قوله تعالى : ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ أى الله أصدق حديثاً منكم أيها اليهود والنصارى ، وقد ظهر بطلان دعواكم وعلمتم أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولانصرانياً إنما كان حنيفاً مسلماً ، فإن كنتم تدعون نسبكم إلى إبراهيم فاتبعوا دينه وسيروا على ملته ، وهو الإسلام : ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ ليؤدوا فيه شعائر دينهم : ﴿ للذى ببكة ﴾ وبكة هى مكة المكرمة يقول سبحانه فى سورة الأنعام الآية ٩٢ : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مباركا مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ ولذلك نجد كثيراً من المسلمين من أبناء هذه القرى يأتون لزيارة جدتهم أم القرى مادة إليهم يدها لتقبيلها وهوالحجر الأسود لأنه يمين الله فى الأرض وتقبيلهم له مبايعة لله على العمل بشريعته فلا يجوز تقبيل غيره من أحجار أو أخشاب أو حديد : ﴿ مباركاً وهدى للعالمين ﴾ وإن هذا البيت فيه الهدى والأمان وجعله الله مباركاً لمضاعفة أجر العبادة فيه : ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴾ ومن الآيات البينات الصفا والمروة والركن والمقام وزمزم ومقام إبراهيم وهو الحجر الأثرى الذى كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام أثناء بناء البيت والبيت هو الكعبة الشريفة وكان الحجر يعلو ويهبط على حسب الحال بأمر من الله ولذلك خلده الله ضمن الآيات البينات وكان ملتصقا بالكعبة فأخره الخليفة عمر ليتمكن الناس من الصلاة عنده لما كثر المسلمون ، وقد أمر الله المسلمين بأن يتخذوه مصلى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾ أى إذا دخل الحرم مرتكب جريمة لايقام عليه الحد إلا إذا خرج من الحرم فيقام عليه الحد والله سبحانه وتعالى يمن على أهل مكة بقوله : ﴿ أو لم يروا أن جعلنا آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾ ولكن فى بعض الأحيان ينتفى منه الأمان وذلك بفعل الناس وإن كان فى ذاته آمنا فقد وقع فيه القتل والقتال وبين القرآن الكريم فى سورة البقرة الآية ١٩١ بقوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولاتقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ .

وقد تم القتل والقتال فى الحرم أيام عبد الملك بن مروان وقد نصب الحجاج قائد جيشه المنجنيق على جبل أبى قبيس وجعل يرمى ابن الزبير ومن معه الذين لاذوا بالحرم حتى هدم الكعبة وتم قتل ابن الزبير وصلبه هل تعلمون من هو ابن الزبير ابن العوام هو ابن ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر أخت عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فى عام ١٤٠٠ هجرية حصلت فتنة فى الحرم راح ضحيتها العشرات من حجاج بيت الله الحرام وذلك بأن جماعة سموا أنفسهم بالمهدية ، وأقاموا فى الحرم ومنعوا الإمام الشرعى من الإمامة :

﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ وقال بعض العلماء إن الكفار مخاطبون بالحج لقوله تعالى ولله على الناس حج البيت والكفار محاربون لله

ورسوله كافرون بما أنزل الله من كتاب وكذلك المشركون الذين أشركوا مع الله إلها آخر فكيف يحج اليهود وهم مشركون بقولهم عزير ابن الله وكيف يحج النصارى وهم مشركون بقولهم المسيح ابن الله ؟ فأهل مكة مشركون بعبادتهم الأصنام واليهود والنصارى مشركون كذلك والله تعالى يقول في سورة التوبة الآية ٢٨ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ روى النسائي عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال سمعت رجلا يستغفر لأبويه وقد مات وهما مشركان فقلت أتستغفر لهما وهما مشركان فقال أولم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبويه فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك فنزلت : وما كان استغفار إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه ، لاحجة لكم في استغفار إبراهيم لأبيه : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ أي كثير الدعاء وجاء في سورة الزخرف الآية ٢٦ : ٢٨ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ﴾ يقص الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمته كيف قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه إنني مما تعبدون أي بريء من معبوداتكم ومقطوع الصلة بيني وبينكم : ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ لأن قوم إبراهيم كانوا يعبدون مع الله الأصنام فاستثنى من معبوداتهم الله سبحانه وتعالى إلا الذي فطرني أي الذي خلقني وأبدعني : ﴿ فإنه سيهدين ﴾ في كل تصرفاتي وهو آخذ بناصيتي : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ وهي كلمة التوحيد التي وصى بها إبراهيم بنيه وبني بنيه بقوله : يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، وما زال البعض من ذريته على الإسلام ومنهم من ضل السبيل إلى أن أتى محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية ولده إسماعيل فحق الله به الحق وأبطل الباطل ، وما تزال كلمة التوحيد باقية إلى يوم القيامة لعل الذي ضل الطريق أن يرجع إلى الحق وإلى كلمة التوحيد وجاء في سورة النمل الآية ١٢٠ : ١٢٣ قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كن أمة قانتا لله حنيفاً ﴾ أي أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وبركة أو أنه كان إماماً يقتدى به في الخير والقانت هو المطيع أو الذاكر لله في كل وقت حنيفاً مائلا عن كل ملة تخالف الإسلام وتلك شهادة له من الله بأنه لم يك من المشركين تبكيتا لليهود والنصارى : ﴿ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ ونعمة التوحيد هي أجل نعمة في حياة الإنسان اجتباه أي اختاره لهداية قومه وهداه برحمته إلى الصراط المستقيم، الذي لاعوج فيه : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ أي الذرية الطيبة والثناء الحسن والصلاة عليه مقرونة بالصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام في التشهد : ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي من الأنبياء المقربين : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ أمر الله رسوله باتباع ملة أبيه إبراهيم في عقائد الشرع دون الفروع لقوله تعالى : ﴿ ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ وما كانت له صلة بالمشركين لا في الدنيا ولافي الآخرة .

وجاء فى سورة الشعراء الآية ٦٩ : ٨٩ قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ أى يا محمد اتل على اليهود والنصارى خبر إبراهيم : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾ وهى كلمة يتخللها الاستهزاء والتهكم والإنكار عليهم، كلمة« ما » لغير العاقل كما تقول لصاحبك ما معك أى أنهم يعبدون أحجارا ينحتونها بأيديهم غير عاقلة فهى لاتسمع ولاتبصر : ﴿ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ يقولون إننا نعبد أصناما ونعكف عندها خاشعين خاضعين وسبحان الله : إنسان عاقل يخضع لجماد : ﴿ قل هل يسمعونكم إذ تدعون ﴾ وتبدأ المجادلة بين إبراهيم صاحب الحق وأبيه وقومه أصحاب الباطل ، ويقذف فى وجوههم هذا السؤال هل يسمعونكم إذا دعوتموهم : ﴿ أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ أى هل ينفعونكم فى جلب الرزق أو يضرونكم إذا لم تعبدوهم ؟ وهنا ضاقت بهم السبل ولزمتهم الحجة ولم يستطيعوا الرد : ﴿ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ وهو رد العاجز الهارب من المواجهة بقولهم : وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأصنام وتمسكوا بالتقليد من غير حجة ولادليل ، وهنا ألقى إبراهيم عليه السلام فى وجوههم السهم القاتل : ﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ أى هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله بتقليدكم لآبائكم الغابرين : ﴿ فإنهم عدو لى ﴾ لأنهم أصنام لاتنفع ولاتضر وكما قلنا إنهم يعبدون الله مع الأصنام فاستثنى عبادة الله : ﴿ إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ أي يرشدنى إلى ما يرضيه ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ وهذه الأصنام لاتطعم ولاتسقى ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وهذا من الأدب مع الله ولم يقل وإذا أمرضنى مع أن المرض والشفاء من الله : ﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾ فإن أصنامكم لاتحيى ولا تميت إنما الذى يحيى ويميت هو الذى خلقكم وخلقنى فاعبدوه : ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ .

ربما يقول قائل إنك وافقت قول الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء وقلت : أن إبراهيم عليه السلام لم يرتكب الكذب وقلت: إن اتهام الراوى بالكذب خير من اتهام الأنبياء بالكذب فما رأيك وقد اعترف إبراهيم عليه السلام وهو يطلب من الله أ ن يغفر له خطيئته يوم القيامة والخطيئة جمع خطايا وقد ارتكب إبراهيم عليه السلام بعض الخطايا وهو قوله عن زوجته سارة عند ملك مصر هذه أختى ، وقال بل فعله كبيرهم وقوله عن الكوكب والقمر والشمس هذا ربى ونقول : هون على نفسك يا من تريد أن تلصق الكذب بأنبياء الله بل ومن أولى العزم فقد قلنا إن كلام إبراهيم عليه السلام من المعاريض فهو لايقصد حقيقة هذا القول والأنبياء إذا وقع منهم خطأ ينبههم الله إليه فيستغفرونه ويتوب عليهم فى الحال .

انظر سيدنا آدم عندما نهاه الله عن أكل الشجرة فأكل منها بوسوسة الشيطان رغم التحذير ، ما الذى حدث ؟ ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ وكذلك سيدنا داود فى سورة ص وهو يحكم بين خصمين قال أحدهما : ﴿ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى

الخطاب ﴾ أى شدد على فى الخطاب وهنا لم يسمع داود عليه السلام رأى الآخر :
﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه ﴾ وعندما علم داود بأنه أخطأ فى الحكم لأنه لم يسمع رأى الآخر ﴿ فالاستغفر ربه وخر راكعا وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ فلو كان سيدنا إبراهيم يقصد من قوله بل فعله كبيرهم حقا ولو كان يقصد عن الكوكب والقمر والشمس هذا ربى حقيقة لنبهه الله إلى هذا الخطأ واستغفر إبراهيم ربه ولتاب الله عليه فالله يعلم بأن كلام إبراهيم ليس حقيقة إنما لإلزامهم الحجة كما يرسم أحد المهندسين رسما لعمارة فخمة فيراها الجاهل بالهندسة فيقول هل أنت رسمت هذه العمارة ؟ فيرد عليه المهندس باحتقار ويقول له بل أنت الذى رسمتها ، أما عبارة اغفر لى خطيئتى يوم الدين فذلك من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين وأن أخوف الناس من الله الأنبياء ثم الأولياء ثم خاصة الناس لأنهم يقدرون الله حق قدره انظر إلى الجندى كيف يهاب الضابط أكثر من هيبتك أنت له لأنه يعرف مقامه . كان صلى الله عليه وسلم يقوم الليل راكعا ساجدا لله حتى تورمت قدماه الشريفتان وكانت عائشة رضى الله عنها تقول له هون على نفسك يا رسول الله فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلا أكون عبدا شكورا ، فأى الذنوب التى ارتكبها رسول الله قبل الرسالة أو بعدها حتى يقول له الله سبحانه وتعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ لذلك نقول حسنات الأبرار سيئات المقربين وما هو الخطأ الذى ارتكبه سيدنا نوح عليه السلام عندما قال ﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولاتزد الظالمين إلا تبارا ﴾ طبعا لاذنب ارتكبه ولكنهم مع قربهم من الله يعتبرون أنفسهم مقصرين ألم تر إلى الملائكة وهم المقربون يخافون ربهم من فوقهم ويستغفرونه ؟ وإذا وفقك الله للصلاة فى مسجد رسول الله وقمت بزيارة قبره الشريف ترى الصالحين العارفين بقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقفون أمام القبر بمسافة لاتقل عن مترين يسلمون على رسول الله بكل أدب واحترام ، وترى الجاهلين بقدر رسول الله يلتصقون بحديد القبر ويقبلونه بل ويلعقون الحديد وهم يظنون بفعلهم هذا أنهم يحبون رسول الله وهذا خطأ : ﴿ رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ﴾ أى لمعرفة حدودك وأحكامك وألحقنى بأنبيائك انظر إلى التواضع المتناهى فهو خليل الرحمن ومن أولى العزم ، ومع ذلك يطلب من الله أن يلحقه بالصالحين : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ وهو استمرار ذكره على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة فى التشهد ﴿ واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾ وهم الأنبياء والصالحون ﴿ واغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولاتخزنى يوم يبعثون * يوم لاينفع مال ولابنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

يعقوب ويوسف

عليهما السلام

مقدمة :

قصة سيدنا يوسف هي القصة الوحيدة التي احتوتها سورة واحدة وسميت باسمه وهي سورة يوسف عليه السلام ، لأن القصة سلسلة أخذ بعضها برقاب بعض ، فلا يكاد يوجد بين آياتها شيء خارج القصة ولذلك جاءت في تناسق منظم وهي تبدأ برؤيا وتنتهي بتفسيرها ، وهناك شخصيات تظهر على مسرح القصة لتعود إلى الظهور مرة أخرى والشخصية الرئيسية على مسرح الأحداث هي شخصية سيدنا يوسف بما فيها من محن ، محنة تسلم أخرى إلى أن وصل إلى المنحة الكبرى .

وقال سعد بن أبي وقاص أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه علينا زمانا فقالوا لو قصصت علينا ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ فتلاه علينا زمانا فقالوا لو حدثتنا ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة و على درجات من البلاغة وقد ذكر قصة سيدنا يوسف ولم يكررها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ولاعلى معارضة غير المتكرر والإعجاز لمن تأمل .

تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿ آلر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ وآلر - من الحروف المقطعة على رؤوس كثير من سور القرآن الكريم يتحدى الله بها أهل مكة وهم أفصح الناس باللغة العربية بأن هذا القرآن مجموع من تلك الأحرف وهذه الأحرف يتكلمون بها فهل يستطيعون أن يركبوا من هذه الأحرف قرآنا مثل القرآن ؟ فإن لم يستطيعوا ولن يستطيعوا فما عليهم إلا أن يؤمنوا بأن هذا الكتاب وحي من الله لا من تأليف البشر : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ - أي القرآن المبين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وهداه : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ أي عربيا بلغتكم التي تتكلمون بها وتدركون أن الذي يؤلف من تلك الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لايمكن أن يكون بشرا إذن لابد عقلا - أن يكون هذا الكتاب وحيا من عند الله وعلى الإنسان أن يعقل ما فيه لأنه خطاب من الله للبشرية كلها وذلك بواسطة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ وقصص القرآن كلها حسن إلا أن قصة يوسف بما أنها جاءت متكاملة في سورة واحدة من أول القصة إلى آخرها فكانت من أحسن القصص لما بها من أحداث وعبر ومحن ومنح وشخصيات تظهر على مسرح الأحداث ثم تختفي لتعود مرة أخرى وشخصيات تظهر ثم تختفي ولاتعود ، وشخصيات ذات حقد وحسد وشخصيات ذات مركز مرموق ولكنها ضعيفة ، ولهذا كانت قصة يوسف عليه السلام من أحسن القصص ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ أي قبل نزول هذا القرآن كنت أحد الأميين في قومك وليس لك معرفة في هذه الموضوعات قبل نزول القرآن وكنت غافلا عما عرفناك .

رؤيا يوسف :

وهنا يرفع الستار عن المشهد الأول من هذه القصة : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ يرى هذا الطفل يوسف هذه الرؤيا فيقصها على أبيه يعقوب عليه السلام الذى شعر بشفافية الأنبياء بأن ابنه هذا سيكون له شأن عظيم يجعل الله فيه النبوة وحذره من أن يقص هذه الرؤيا على إخوته وهو الصغير وغير الشقيق لأن أخاه الشقيق هو بنيامين . الذى هو أصغر منه فخاف من حسد إخوته عليه أن يدبروا له سوءا : ﴿ قال يا بني لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ لئلا يحقدوا عليك ويسول لهم الشيطان فيكيدوا لك المكائد حقداً وحسداً : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ أحسَّ يعقوب بحساسية النبوة بأن الله سيختاره نبياً لتكون سلسلة الأنبياء مستمرة فى بنى إسرائيل ، وأن تفسير الرؤيا لم يتحقق بعد وسوف يأتى زمانها ويتم نعمته عليك بالنبوة كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق والجد يطلق عليه لفظ أب لأن ربك عليم بمن يقوم بأعباء الرسالة وحكيم يضع الأمور فى نصابها : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ آيات عبر وحكم ومواعظ : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾ يقصدون ضلال التفكير والتدبير لاضلال الدين ، ولو أرادوا ضلال الدين لكانوا كفارا ، فكيف يفضل أباهم اثنين من صغارالسن على عشرة رجال أقوياء نافعين مدافعين ؟ وبدأ الغل والحسد يسرى فى دمائهم فيهوّن عليهم الكبائر ويضخم لهم الصغائر حتى سول لهم الشيطان أن يرتكبوا فعلتهم الشنعاء ، ولم يراعوا أخوة ولا رحما ولاحال أبيهم الطاعن فى السن فدبروا لقتل أخيهم يوسف وإزهاق روحه الطاهرة ، ما هو الذنب الذى ارتكبه يوسف فى حق إخوته ؟ إلا أن أباه يميزه بالحب العاطفى ودائما الصغير محبوب إلى أبويه أكثر من الكبار : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ وكانوا جميعهم على قلب رجل واحد فالكل مصمم على ارتكاب الجريمة ما عدا واحدا منهم سينكشف الستار عنه فى ما بعد وبدا التدبير لتنفيذ الجريمة : اقتلوه أو اذهبوا به إلى أرض بعيدة لايستطيع الرجوع منها يصف لكم وجه أبيكم يخلص لكم فلا يحجبه يوسف وتكونوا من بعد غياب يوسف قوما صالحين فيقبل عليكم بعقله وقلبه ، وجريمة القتل أين تذهب ؟ سول لهم الشيطان بالتوبة منها ليصبحوا بعد ذلك صالحين فإذا أظلمت النفوس وتحجرت القلوب ساقها الشيطان إلى الهاوية وبرر لهم فعل كل شئ حتى القتل وهو أبشع جريمة بعد الإشراك بالله وتظهر أول الشخصيات الطيبة التى لاترضى بالقتل : ﴿ قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ وهو أخوهم يهوذا أكبر أولاد يعقوب فهو يشككهم فى تنفيذ الجريمة ويثبطهم ويضعف عزيمتهم

واختار لهم طريقة أخرى للتخلص من يوسف وهى إلقاؤه فى الجب ، واتفقوا على الرأى الآخر وكان قصد يهوذا بعد إلقاء يوسف فى الجب ورجوعهم إلى أبيهم أن يعود إلى الجب فينتشل أخاه من الجب ، ولكن تدبير الله أفضل من تدبير يهوذا ليوسف لقد سبقته السيارة فأخذوه معهم وباعوه فى مصر : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ والظاهر أنهم سألوه قبل ذلك فى ذهاب يوسف معهم إلا أنه كان يرفض وأول الآية تشير إلى ذلك فتفننوا فى إقناعه : ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ ياسلام : يرتع ويلعب وينشط رياضيا وإنا له لحافظون من كل ما يمسه بأى أذى والله أعلم بما يضمرون له فى الخفاء : ﴿ قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به ﴾ أى لا أستطيع صبراً على فراقه بعيداً عن عينى ولو بعض يوم ، وبهذا الحرص الشديد من أبيهم على يوسف هاجت أحقادهم وغلت دماؤهم حقداً ولكنه لم يفكر أبداً فى أنهم يأتمرون لقتله ، وهو أخوهم ، وهم أبناء نبى فعلل خوفه بأن قال : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ وهنا وجدوا الطريق ممهدة فى السير فى تنفيذ مؤامرتهم الدنيئة : ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ كيف يأكله الذئب ونحن عشرة رجال أقوياء ولا ندافع عنه ولا نحميه من الذئب أو غير الذئب لاخير فينا اذن .

تنفيذ المؤامرة :

﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ﴾ وسلمه لهم على أن يحافظوا عليه ويرفعه أحدهم على كتفيه فإذا أنزله رفعه الأخر ليظهروا لوالدهم محبتهم فى يوسف حتى إذا تواروا عن عينى أبيهم بدا ما كان خفى فى قلوبهم ولابد أن يموت فى الجب : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون ﴾ يوسف فى الجب بين قاب قوسين أو أدنى من الموت ولكن الله قريب منه يتولاه ويرعاه برحمته وفضله فأوحى اليه وحى ألهام .

الوحى والإلهام فى القرآن الكريم:

كان يوسف فى هذا الوقت لاتتعدى سنة سبع سنوات ومن قال إن سنه حين ألقى فى الجب كانت سبعة عشر عاما فقد أخطأ لأنه لو كانت سنه سبعة عشرعاما ما استطاع إخوته أن يضربوه ويلقوه فى الجب بل كان دافع عن نفسه واستطاع أن يهرب من إخوته وما استطاعوا أن يخلعوا قميصه وذلك مثل قوله تعالى لسيدنا موسى : ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾ وهو وحى إلهام ومثل قوله تعالى :﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى ﴾ وهو وحى إلهام ومثل قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ وهذا الإلهام ليطمئن قلبه ويعلم بأنه ناج ولتخبرنهم فى المستقبل بفعلهم هذا عندما يحتاجون إليك لتنقذهم من الجوع وهم لايشعرون بأنك يوسف فقد تغيرت الأحوال وتبدلت وأصبحت ملكاً فى يدك حياة الناس وهم على حالهم كما تركتهم فى فقرهم ومذلتهم بل أشد مما كانوا فيه .

﴿ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ﴾ المعروف عند جميع الرعاة أن يعودوا إلى منازلهم بأغنامهم عند غروب الشمس لماذا تأخروا فى هذا اليوم إلى العشاء أى فى الظلام ؟ لأن النهار يظهر كذبهم أما الظلام فيوارى الكذب الذى يظهر على وجوههم وعلى أعصابهم المتوترة بارتكابهم الجريمة فقد تسرعوا فى تنفيذها اعتمادا على قول أبيهم : وأخاف أن يأكله الذئب واعتبروا هذا التحذير حجة لهم ليتخلصوا من الجريمة فربما لاتواتيهم الفرصة مرة أخرى . وعندما سألهم عن بكائهم : ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أى فى الجرى للسباق بينهم : ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أى ملابسنا وطعامنا وشرابنا : ﴿ فأكله الذئب ﴾ ولولا أن أباهم حذرهم من الذئب لأعيتهم الحيل فى تبريرهم لارتكاب الجريمة ولكن قصة الذئب جعلتهم ينفذون ويحيلونها إلى الذئب المفترى عليه . مثل حرق المصانع والشركات بعد سرقتها وإلقاء التهمة على الماس الكهربائى البرئ ، والكذاب يظهر كذبه من كلامه وهم يعرفون أنهم كاذبون ، وموضوع الذئب ليساعدهم على الإفلات من الجريمة : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ وإنك بحبك ليوسف لن تؤمن لكلامنا وإن كنا صادقين فيما نقول ، وقدموا الدليل على أن يوسف أكله الذئب ، ولكنه دليل باطل : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال بعض العلماء : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة تعارضها وهى سلامة القميص من التمزيق إذ لايمكن افتراس الذئب ليوسف وهولابس قميصه ويسلم من التمزيق ، ولما تأمل يعقوب قميص ابنه يوسف لم يجد فيه تمزيقاً استدل بذلك على كذبهم وقال لهم متهكما : ما أحلم هذا الذئب الذى افترس ولدى ولم يمزق قميصه قال لهم : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ أى زينت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء شيئاً مفترى كذباً وزوراً ولكن يعقوب عليه السلام كان واثقا من أن ابنه لم يمت ولابد أن يكون نجاه الله لأن حكاية الذئب قضية فاشلة وهو يعلم كذلك بأن رؤيا ابنه يوسف حقيقية ولابد أن تتحقق فى حياته وصبر يعقوب على قضاء الله وقدره ولازال تؤانسه رحمة ربه : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون ﴾ والسيارة جماعة يسيرون سفرا طويلا ، وواردهم هو الخبير بمسالك الطريق . فأدلى دلوه لطلب الماء وتعلق يوسف بالدلو فلما ثقل الدلو ظن الرجل بأن الدلو امتلأ بالماء فشد الدلو إلى أعلى وظهرت المفاجأة فإذا هو طفل معلق بالدلو .

قال : يا بشرى هذا غلام وجعلوه بضاعة فى سرية والله من فوقهم عليم بما تعلمون : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ وشروه أى باعوه بثمن بخس ضئيل للغاية وهى دراهم معدودة أى قليلة العدد وكانوا فى بيعه من الزاهدين يريدون التخلص منه بأى ثمن كان . لكى لايتهموا بسرقته أو لأنهم لايعلمون مكانته عند الله .

يوسف فى مصر عند العزيز وزوجته :

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ وقد قيل إن الذى اشتراه هو رئيس شرطة مصر ومكانة الأخير أقرب إلى سير الأحداث كما سيأتى وكان هذا الملك عقيما لم يولد له ولد فقال لامرأته أكرمى مثواه والإكرام شدة العناية به وبمكان إقامته من حجرة وفرش وغطاء وملابس وإطعام عوضا عما لاقاه فى الجب عسى أن ينفعنا فى القيام ببعض المهام أو نتخذه ولدا أى بالتبنى وكان جائزا فى الأمم السابقة حتى أبطله الإسلام : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض بدخوله قصر الملك ولنعلمه من تأويل الأحاديث أى تفسيرها كما سيأتى بعد والله غالب على أمره أراد له إخوته أمرا وأراد الله له أمرا ولما كان الله غالبا على أمره فقد نفذ أمر الله وأما إخوه يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوا لكن أكثر الناس لايعلمون بأن إرادة الله نافذة : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما فى كل ما صادفه من مشاكل وكذلك نجزى المحسنين : صبره على المحن وثباته على المبدأ فى عقيدته المخلصة لله رب العالمين .

يوسف وزوجة العزيز :

وبدأت كبرى المحن : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ﴾ والمراودة هى المقدمات باللين والرفق والمحادثة التى تلين أقسى قلوب الرجال ولكنه أى يوسف لا يأبه بها ولا يوليها أى اهتمام لسببين : أولهما إيمانه بالله وامتثاله لأوامره بالطهارة من الأرجاس ـ الطهارة التى وجد عليها أبوه يعقوب عليه السلام وجده إسحق ، ووجد أبيه إبراهيم عليه السلام ، وثانيهما لأن بعلها أكرم مثواه ومكن له فى بيته وجعله المتصرف فى أمواله وخدمه ووثق به ثقة ليس لها حد فلا ينبغى أن يقابل كل ذلك بالنكران فلو لم يكن له دين يحجزه عن الشر لكان ذلك كافيا لحفظ سيده فى أهله والبعد عن تدنيس فراشه وقد بلغ يوسف أشده فى قصر الملك حيث الترف الذى يمهد الطريق إلى الرذيلة التى عصم منها والمفروض فى هذا الفتى أن يؤمر فيطيع ويكون أسرع إلى الطاعة وخصوصا إذا كان الآمر امرأة الملك والمأمور فتاها وسيدة القصر تدعوه إلى ما يطمع فيه الأمراء والكبراء لا الحشم والخدم ، وإذا بامرأه الملك تواجه بما يحطم رغبتها ويذل كبرياءها رفض من يوسف يواجه به امرأة الملك معاذ الله ثم يعقبه لون من التأنيب فيه قرع للنفس التى تحس : إنه ربى أحسن مثواى يريد أن يحرك فى نفسها نوازع الخير لعلها تفيق من غفوة الطيش كان ذلك دأب يوسف معها إلى أن هاج به هائج الغريزة وعزمت على شفاء ما فى نفسها من الحب فصارحته القول ودعته إلى نفسها دعوة لاهوادة فيها واحتاطت للأمر وأخذت عدتها .

يوسف يرفض مراودة امرأة العزيز :

.. ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون ﴾ وصممت على تنفيذ الأمر بقوة السلطان والعملية الجنسية لاتتم بالقوة وغلقت الأبواب التى تؤدى إلى مخدع الملك الذى تريد أن تتم فيه الرذيلة وقالت هيت لك أى تهيأت لك فى كامل زينتها ولكن يوسف أبى لأنه إذا كان الملك غائباً عن مخدعه فإن ملك الملوك على عرشه يرقب كل شئ قال معاذ الله ـ أى أعيذ نفسى بالله أن أفعل السوء إنه ربى أى الملك الذى ربانى فى قصره أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون رفض من الفتى يواجه به امرأة الملك .. معاذ الله ـ ثم يعقبه لون من التأنيب فيه قرع للنفوس التى تحس : إنه ربى أكرم مثواى وإن كان أكرم مثواى كفتى فى القصر فقد أكرم مثواك فجعلك سيدة القصر فكان أولى لك الحفاظ على هذا الجميل ، ثم انتهى الأمر إلى التهديد إنه لايفلح الظالمون ، وفى هذا الموقف العنيف شاب فى ريعان شبابه وغضاضة الفتوة تدعوه سيدته الجميلة إلى نفسها فيغلبه دينه ويعصمه رعى الذمام لسيده أى شئ كان يمكن أن يمنع الفتى اليافع من الإقدام على ماتريده امرأة الملك : أهى خشية أصحاب القصر ؟ أبداً إن التى تدعوه هى زوجة الملك سيدة القصر التى يعمل الكل تحت إمرتها ثم هى التى غلقت الأبواب وقالت هيت لك ، ولنا أن نتصور هذا الأمر مخدع الملك بما يحيط به من مظاهر الدنيا وأبواب أحكم إغلاقها والسيدة الأولى فى القصر استعدت بما يمكن أن تستعد به الأنثى فى مثل ترفها ورفاهيتها ثم إن الذى أمامها شاب فى ريعان شبابه وهو فتاها الذى ليس عليه إلا أن يؤمر فيطيع ويخضع ثم بماذا تأمره ؟ إن الناس دائما يقبلون على طاعة الملوك والأمراء ولو كان الأمر فيه على النفس مشقة ،ولكن الأمر هنا يتضمن شيئاً آخر إن كل وسائل الأمان والطمأنينة قد توافرت ومع ذلك بقى شئ واحد له الغلبة وليس منه مهرب وهو إن تغافل الملك بعيداً عن مخدع زوجه خلف الأبواب المغلقة فإن الملك الجبار فوق عرشه يرقب ويرى فجاء الجواب صريحاً حازما قويا ليحسم الأمر : معاذ الله : ثم أعقبه التأديب اللاذع الذى .. يشعر امرأة العزيز بتفاهة تفكيرها وانحطاط طبعها فيما تريد إنه ربى أحسن مثواى ثم يعقبه الوعيد إنه لايفلح الظالمون كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين وشعرت امرأة الملك بضآلتها امام فتاها الشاب وقد قابلها بالرفض شعرت بأن كرامتها قد تحطمت وكان يمكن أن تكف عن رغبتها وقد قوبلت بالرفض والتأنيب والتهديد وعلى الأخص لأن ما تريده شى لايمكن أن يتحقق بالتهديد والقوة والأنثى إذا دعت إلى الجنس وقوبلت بالرفض تشعر بأنها قد انتهت وأصبحت مضغة فى الأفواه وهى بعد لم تحقق ما تريده فكأنما خسرت كل شى ولم تكسب أى شى عند ذلك وجدت امرأة الملك أن خير طريق لها أن تجبره على ما تريد .

الهم به والهم بها :

﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ هونهاية موقف طويل من الإغراء لحالة النفس البشرية من المقاومة والضعف ثم الاعتصام بالله فى النهاية وتمت النجاة ويوسف بين الأخذ والرد بين الميل البشرى والحاجز الربانى ولقد همت به وقد كثر اللغط فى هذه الآية فى كتب التفاسير والقصص فالبعض يقولون إن امرأة العزيز قد همت بيوسف ليضاجعها وهو هم بها وإنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته فلما لم يبق إلا إتمام ما قصدته وقصده جاء جبريل وأخبره بأنه سيكون نبيا وهذا العمل لايليق بالأنبياء فكف عنها وهذا برهان ربه وقال آخرون إن البرهان الذى رآه وهو فى هذه الحالة إذ نظر إلى أعلى فرأى وجه أبيه عاضا على أنامله يؤنبه على هذا العمل وقال آخرون إن يوسف وهو فى تلك الحالة نودى من الله يا يوسف إنك مكتوب فى ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء وقال آخرون إن يوسف كان قبل النبوة أى فعل المعصية فى هذا الدور غير ممتنع إلا على الأنبياء وأصحاب الأقوال غافلون عن قوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فإن الرسالة إنما يختار لها أصحاب الأعمال المرضية ولايختار الله رسله من أهل الفسق وقال آخرون إنما هَم يضربها وهذا لايصح أنها تستطيع أن تستغيث بالخدم وتدعى أنه يريد أن يفعل بها أما هَم يوسف وهو بشر نعم إنه بشر مختار فلم يتجاوز همه الميل النفسى فى لحظة من لحظات الضعف البشرى فلما رأى برهان ربه الذى تيقظ في ضميره وقلبه بعد لحظة الضعف الطارئة عاد إلى الاعتصام وقال بعض العلماء جري من يوسف هم وكان ذلك حركة طبع من غير تصميم على الفعل وما كان من هذا القبيل لايؤاخذ به العبد وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد وتناول الطعام اللذيذ فإذا لم يأكل ولم يشرب ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ لأن لولا حرف امتناع الهم لوجود البرهان وامتنع إبداء أم موسى بما فى نفسها على ابنها لوجود البرهان وهو ربطنا على قلبها ، وليس معنى لولا أن رأى برهان ربه أى رأى شيئا ماديا منعه من ارتكاب الجريمة إنما أحس وشعر بنور الإيمان يسرى فى منطقة الضعف البشرى فأفاق واستيقظ فقال معاذ الله !

كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين بهذا الحفظ الإلهى والتدبير الربانى إذ عادت نفسه الأمارة بالسوء إلى حظيرة نور الإيمان قبل أن تقع فى أوحال الفحشاء والمنكر ، وهو من سلسلة الأنبياء ومن عباد الله والمخلصين : ﴿ واستبقا الباب قدت قميصه من دبر ﴾ ونلاحظ من كلمة استبقا الباب من المسابقة والجرى والسرعة هو يريد أن يهرب من شيطان غوايتها وهى تريد الإمساك به ليقضى لها لبانتها وفى هذا الصراع نسيت كل شىء نسيت أنها امرأة ملك وأن الذى أمامها فتاها أى خادمها وفى غمرة هياجها الحيواني أمسكت به ولكنه خلص منها فى قوة وإصرار فقطعت قميصه من الخلف .

العزيز وزوجته تصور له الواقعة لمصلحتها :

﴿ وألفيا سيدها لدا الباب ﴾ ونلاحظ هنا كلمة سيدها ولم يقل سيدهما إنما هو سيدها هى لاسيده هو لأن سيده هو الله : ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ ـ يوجد فى الأمثال ـ ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى ـ هذا المثل ينطبق على امرأه العزيز مع يوسف ذلك أنها لما رأت زوجها لدى الباب يريد الدخول وكان معه ابن عمها أرادت أن تشفى غليلها وحنقها على يوسف لما فاتها من التمتع به وتوقعه فى الشر جزاء تمنعه عن مطاوعتها تقدمت نحو زوجها باكية شاكية قائلة : ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم هى تقدم الشكوى الباطلة ضد يوسف و تحكم عليه إما بالسجن وإما بالعذاب ولم تطلب إعدامه لأنها فكرت ربما يرجع عن إعراضه وينفذ رغبتها وأفهمت زوجها بأن يوسف يريد مراودتها عن نفسها وإنها أبت ذلك وطلبت منه أن يحكم عليه بإحدى العقوبتين : ﴿ إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ وهل يصمت الحق أمام الباطل ؟ وقد وجد يوسف نفسه فى موقف حرج وأن الصدق سبيل نجاته : ﴿ قال هى راودتنى عن نفسى ﴾ وأنا امتنعت وأبيت حتى آل أمرها إلى أن نازعتنى ثوبى : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ وهذا الرجل الذى هو من أهلها كان مع زوجها وشهد الواقعة أم أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر كما يقع فى مثل هذه الأحوال أن يستدعى الرجل كبيرا من أسرة المرأة ويطلعه على ما رأى وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدم المائعة القيم وعندما عرض عليه الأمر وسمع أقوال امرأة العزيز وأقوال يوسف ـ لم تكن شهادة بالرأى ولكن بالوقائع المادية الثابتة وقد ثبت أنه من المحققين المهرة وفراسته فى كشف الحقيقة : ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أى من الأمام : ﴿ فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ لأن الهاجم على المرأة وهى تدافعه إنما يظهردفاعها فى مقدمة قميصه والهارب من المرأة العالقة بثوبه إنما يظهر أثر ذلك من الخلف لأنه سيكون مستديرا لها وهى تجاذبه من الخلف فعندئذ ظهر صدق يوسف وكذب امرأة العزيز لأنه رأى قميصه قد من دبر فعاد العزيز على امرأته باللوم ويبدو أن لبعض القصور التى تمرغت فى الترف والرفاهية تقاليد فلم يزد الزوج عن قوله : ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ وهنا تبدو لنا صورة من صور القصور رخاوة فى مواجهة الفضائح الجنسية وميل إلى كتمانها عن المجتمع فالملك يوجه الكيد للجنس كله لا لامرأته إنه رجل ضعيف لايحسن القوامة على بيته ولذلك قال : إنه من كيدكن ولم يقل إنه من كيدك وهذا شرف لها إذ يقول لها زوجها إنه من كيدك إن كيدك عظيم لأنه يمدحها إذ أصبحت امراته قادرة على الكيد : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ يوجه العزيز قوله إلى يوسف وفيه نوع من الترضى وعدم كشف السر أما امرأته فيقول لها : ﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ ولم يبعد الملك بين يوسف وزوجته وهكذا تمضى الأمور فى القصور ولكن للقصور جدرانا عالية وفيها خدم وحشم ، وما يجرى فى القصور من فضائح ورذائل لايمكن أن يظل

مستورا وبخاصة في وسط الأميرات وزوجات الأمراء اللاتي يجدن الثرثرة بما يجرى في محيطهن ، وتداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات فيما بينهن ، وقد أعرض يوسف الصديق عن هذا الحديث ، أما المرأة فلم تستغفر لذنبها وعاودت الكرة من جديد إن الصديق الذى يأبى أن يسئ إلى رجل أكرم مثواه وقد صرف الله تعالى عنه السوء والفحشاء ،لا أقل من أن يعرض عن ذكر ما حدث لنفس السبب فإن إشاعة ما حدث طعن في شرف رجل أكرم مثواه ولكن يبدو أن الخبر تسرب من طريق آخر .

امرأة العزيز تواجه الإشاعات بمكرها الخبيث

﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ شاع نبأ حادثة امرأة العزيز وفتاها بين نساء الحاشية ولاكته أفواه النساء لائمات لها على هذا الغرام بفادح اللوم ووصل هذا القول إلى أذن امرأة العزيز فأخذت في الكيد لهن فأرسلت إلى طائفة من نظيراتها اللاتي لمنها في عملها هذا وهى السيدة الكبيرة امرأة الملك الكبير كيف تفتتن بخادمها العبراني المشترى ؟ وهنا كذلك يقع ما لايمكن وقوعه إلا في مثل هذه الأوساط الغارقة في مستنقع الرذيلة وهنا يكشف السياق عن مشهد من صنع المرأة الجريئة التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهن وكيد ككيدهن : ﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾ أى دعتهن إلى حفل وبالطبع لاتجتمع زوجة الملك إلا مع نساء الأمراء والكبراء وأصحاب الترف القاتل للفضيلة والمجتمع المتجرد من الحياء ، وأحضرت لهن من الطعام والفاكهة ما يحتاج إلى سكين لتقطيعه وفي هذه اللحظة وهن منهمكات في تقطيع الفاكهة وإذا بالمفاجاة تذهلهن : ﴿ وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ فلما ظهر يوسف أمامهن فبهرهن جماله وألهاهن عن تقطيع الفاكهة فصرن يقطعهن أيديهن وشغلن بمطالعة حسنه وجماله والتأمل في محاسن خلقته واللذة في منظره جعلتهن لا يشعرن بجراح أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم حينئذ باحت امرأة العزيز لهن بما في فؤادها من اللوعة وقالت لهن كما يشكو العاشق بلواه لعاشق مثله : ﴿ فذلكن الذى لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ فنرى أن امرأة العزيز كتمت أمرها حتى أوقعتهن في غرام يوسف وأصبحن كلهن في الهوى سواء ثم باحت لهن بذات نفسها آمنة النميمة من هولاء النسوة بعد أن وقعن في حب يوسف وذلك مثل قول القائل .

لاتخف ما فعلت بك الأشواق   واشرح هواك فكلنا عشاق

ونحن نرى أن عشقها فضحها في المرة الأولى ولتتخلص من العار ولتتشفى من فتاها الذى وصل حبه إلى شغاف قلبها وأنضج فؤادها هواه فلم تحسن التخلص ولم يكن كذبها منجيا لها

من اللوم وكان المفروض أن ترتدع ولكن الهوى صرعها للمرة الثانية فتوعدته أمامهن بأن يصدع لأمرها وإلا كان مأواه السجن ، ورأت امرأة العزيز أنها انتصرت على طبقتها وأنهن لقين من طلعة يوسف عليهن من الدهشة والإعجاب والذهول فقالت المرأة المنتصرة التى لاتستحى أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها والتى تفخر عليهن بأن هذا الفتى فى متناول يدها وإن كان قد استعصى قيادة مرة فهى تملك هذا القياد مرة أخرى وانظرن ماذا لقيتن من الدهشة والإعجاب وقد بهرنى مثلكن فراودته عن نفسه فاستعصم .

السجن أحب إلى يوسف من دعوة النساء

ويسمع يوسف هذا القول فى مجتمع النساء المبهورات المبديات لمفاتنهن فى مثل هذه المناسبات فلم يبق أمامه إلا مناجاة ربه : ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾ فبعد أن كانت الدعوة فردية من امرأة العزيز أصبحت الآن دعوة جماعية من نساء الأمراء فالكل يطلبن من يوسف ما تطلبه امرأة العزيز . ولذلك قال يوسف : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ولم يقل مما تدعونى إليه فهو يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولتهن لإيقاعه فى حبائلهن خيفة أن يضعف فى لحظة من لحظات الضعف البشرى أمام الإغراء الدائم فيقع فيما يخشاه على نفسه ويدعو الله أن ينقذه منه : ﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ ولقد عاودت المرأة الكرة رغم اكتشاف الجريمة بأدلتها المادية ولم يكن ذلك إلا لأنه مسكين هذا الزوج المغلوب على أمره الذى فقد القوامة على بيته فقد اكتفى بقوله واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ولما فشت الفضيحة رأى الملك ومستشاروه بأن لايخلصهم من هذا العار ويكف ألسنة الناس عنه وعن زوجته إلا زجه فى السجن وهنا تنشط وسائل إعلام الملك بأن يوسف ما زج به فى السجن إلا لأنه خائن كاذب فى ادعاء البراءة وأن زوجة العزيز برئية مما قذفت به وقد استجاب الله دعاء يوسف : ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ وذلك بانصرافه عن إغرائهن حتى لايشعر ولايؤثر إغراؤهن على نفسه وهو سميع وعليم يسمع الكيد ويسمع الدعاء ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ وهكذا جو القصور وجو الحكم المطلق وجو الجاهلية فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة اللاتى عايرنها حفل استقبال وتعرض عليهن فتاها الذى شغفها حبا ثم يطلبن منه ما تطلبه هى منه ثم يلجأ إلى الله فيعصمه منهن وقد رأى الملك وأعوانه أن دخول يوسف السجن بدون محاكمة لاتنفى التهمة عن زوجته فلابد من أن تكون هناك محكمة وقضاء ليدخلوا فى روع الناس بأن يوسف ما زج به فى السجن إلا لأنه خائن ومعتد على امرأة الملك ، وأدخل يوسف البرئ السجن فداء لسمعة الملكة الظالمة الباغية المستهترة بكرامتها وكرامة زوجها والتى عرضت عفافها بضاعة رخيصة سبحان الله تلك صورة رائعة من صور الاعتصام والتمسك بالمبادئ والمثل القيمة سبحان الله السجن بجدرانه وظلماته وقسوة السجان والقيود

والأغلال والأسوار العالية كل هذا أحب إلى نفس الصديق من القصر الملكى المترف ومخدع امرأة الملك : أسوار السجن العالية التى تحجب الإنسان عن الحياة أحب من جدران القصور التى يطمع الجميع فى الاقتراب منها ، الحرمان داخل السجون أحب من العيش الرغد داخل القصور ، ظلام الحبس أحب إليه من أضواء القصور وأخيراً أحضان السجن أحب إليه من أحضان امرأة الملك لأن الحرية ليست حرية الجسد بل هى حرية النفس والروح قد يهون السجن من أجل مبادئ وقيم صادقة يعتنقها الإنسان ويخلص لها أما أن يكون السجن بديلا عن لحظة شهوة طارئة مع امرأة ملك فذلك ليكون إلا من أصحاب الاصطفاء الإلهى ولتنتفى عن سيدة القصر التهمة التى أعلنتها أمام نسوة الأمراء ، كان لابد أن يدخل الصديق السجن مظلوما وهدأت عاصفة الغواية والخيانة فى قصر الملك إلى حين لتبدأ مرحلة أخرى فى السجن ، ولكن مرحلة من نوع آخر وهى مرحلة التوحيد .

المرحلة الثانية :

الدعوة إلى التوحيد فى السجن . رؤيا الفتيان :

﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ ولابد للمحكمة التى حكمت على يوسف بالسجن رأت أن تحكم بالسجن على اثنين لتكون القضية محبوكة ليشاع الخبر بين الناس بأن يوسف لو لم يكن مجرما خائناً ما حكمت عليه المحكمة بدخول السجن مع اثنين أحدهما رئيس الخبازين والآخر ساقى الملك وهذا هو شأن الطبقة المترفة دائماً لها ضحايا لتدفع عن نفسها وصمة العار وقد وجد المسجونان فى يوسف من الأخلاق الكريمة والآداب العالية الرفيعة فازدادوا قربا منه فقال أحدهما : إنى رأيت رؤيا كأنى أعصر خمراً وقال الآخر إنى رأيت رؤيا كأنى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتفسيرهما إنا نراك من المحسنين الطيبين . وهنا بدأت دعوة التوحيد لأن الداعى إلى الله ليس له مكان فى مجتمع الدكتاتورية وحكم الفرد ، فإذا أعلن دعوة الحق والعدل وطالب الشعب بنيل حقوقه الشرعية وكشف الفساد والنهب ؟

من أموال الشعب وطالب بتطبيق شريعة الله على عباد الله فى أرض الله ونبذ كل قانون يخالف شرع الله .. هذا الداعى لا تتحمله سلطة الفرد الحاكم فلا بد من زجه فى السجن وهناك يجهر بدعوة الحق وسط المسجونين لأنه ليس فوق السجن سجن ومن ظلمات السجن وخلف أسواره العالية بدأ يوسف يعلن دعوة الحق دعوة التوحيد دعوة الربوبية دعوة الهداية وبدأ الحديث مع صاحبيه ومن حولهما من المسجونين بأنه سيفسر لهم رؤياهما لأن الله سبحانه وتعالى علمه تفسير الأحلام وذلك لعبادته لله وحده وأن لايجعل معه شريكا وهذا مما سار عليه من تعاليم آبائه وأجداده إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

﴿ قال لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربى إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون ﴾ وذلك طريق الداعى الحكيم الذى يعرف كيف يأخذ بمسامع وقلوب السامعين فهو يخبرهما بأن أى طعام سيأتيهما سينبئهما به قبل وصوله إليهما وذلك مما علمنى ربى وقد تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون مشيراً بذلك إلى القوم الذين ربى فيهم وهم بيت العزيز وحاشيته وشعبه التابع له بدون وعى ولاتعقل فى عبادة الله وبدأ يوسف يبين لهما محاسن ملة الدين الحنيف التى يتبعها هو وآباؤه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهى ملة التوحيد التى تدل عليها جميع مخلوقات الله وهذا التمسك بالدين الخالص والبعد عن الإشراك بالله الذى هم عليه وكبراؤهم ، وذلك من فضل الله علينا إذ حمانا بالتوحيد عن الشرك ، وعلى الناس الذين أمدهم بالعقل الذى يهديهم إلى طريق الحق والخير والصلاح ، لأن العقل الصريح لايختلف مع النقل الصحيح ، ولكن الشيطان غلب عليهم فزين لهم الضلال وكره إليهم الحق، فناصبوا شريعته العداء ، ومع ذلك يطعمهم ويسقهم ولكن أكثر الناس لايشكرون نعمه عليهم الظاهرة والباطنة ويوسف فى خطبته وموعظته وقد استكان المسجونون له ولقوله رأى إن يضرب ضربته الإيمانية فيبين لهم لمن تكون الطاعة ولمن يكون السلطان ؟ ولمن يكون الحكم ولمن تكون العبادة ؟ : ﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ والآن بعد أن فرغ من خطبته وموعظته فى بيان الاعتصام بالله وحده الذى يجلب لمعتنقيه الهداية والصلاح واطمئنان القلب والصبر على ما يواجهه الإنسان من مصاعب ومحن وهو يعلم بأن هذا كله من عند الله وأن يحمد الله على كل شىء وهو واثق بأن الآخرة خير وأبقى ، وهوالآن يتوجه إلى الرجلين بقوله ياصاحبى السجن من صحبته معهما فى السجن وإن كان الكلام موجها إلى الرجلين إلا أنه موجه إلى المسجونين بعامة وخص الاثنين لأن لهما مصلحة عنده بتفسير رؤياهما : ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ هو سؤال يسرى فى الجسد سريان الكهربا فيصل إلى القلب فيهزه هزا ليوقظه من غفلته ليرى الحق واضحا فإن تعدد الآلهة وتعدد الأرباب هو الذى يجعل الإنسان حائرا هل هذا التعدد خير أم الله الواحد القهار ؟ إن الذى يستحق أن يكون ربا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار والفطرة السليمة تنفى أن يكون مع الله إلهة آخر ففى سورة الأنبياء يقول تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا * فسبحان الله رب العرش عما يصفون * وهى سورة مكية يخاطب بها أهل مكة الذين لايرون إلا هذه الأرض التى يسيرون فوقها وهذه السماء بشمسها وقمرها ونجومها ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فلم يسألوا لماذا تفسد لأنهم أهل لغة وأفصح الناس باللغة العربية لأنهم يعلمون علم اليقين أنه لو كان فى الكون إلهان إذن لاختلفا وتشاكسا ، فهم عند الشدة يخلصون العباده لله وحده مثل قوله تعالى يكشف لنا عقيدة الجاهلية الأولى : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها

فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ﴾ فنرى هنا أنهما توجها إلى الله الواحد الآحد أن يرزقهما طفلا صالحا فلما رزقهما صالحا عادا إلى شركهما ـ وقوله تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾ وهى مناطق الخطر فى عهدهم وهنا تتيقظ الفطرة السليمة فيلجأون إلى الله الإله الحق : ﴿ تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه الغمة لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ فنرى أن أهل الجاهلية الأولى كانوا يلجأون إلى الله فى الشدة والخطر وفى الأمان يعودون إلى شركهم أما الجاهلية الثانية أى جاهلية عصرنا فهم يشركون فى الخطر والشدة ويوحدون فى الأمان وفى سورة المؤمنون وهى سورة مدنية نزلت فى المدينة * والوضع فى المدينة يختلف عن الوضع فى مكة فأهل مكة كلهم عرب أما المدينة فيوجد فيها عرب ويهود ونصارى فالوضع يحتاج إلى فضل بيان يقول تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ فنرى فى سورة الأنبياء المكية لم يذكر كلمة ولد إنما ذكرت فى سورة المؤمنون المدنية لأنه بالمدينة يهودا ونصارى ومعهم بقية من كتبهم فلا بد من أن يناقشوا ويجادلوا لأن لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق هذا يعمل أرضا وسماء وأقمارا ويخلق أنواعا غير الأنواع التى خلقها الإله الثانى ، ولعلا بعضهم على بعض أى لغار هذا على ملك هذا واستولى على شمسه ، ولهاجم الآخر على خلق الأول واستولى على أرضه ، ولهاجمه الآخر واستولى على مخلوقاته ، ولكن لنرى الكون كله منتظما ومتناسقا وكله يسير على حسب ما أراده الإله الواحد الأحد .

يوسف يفند آلهة المشركين :

﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ أى هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله بشرية أو شياطين أو ملائكة أم حجارة إنما سميتموها أنتم أى سميتموها آلهة وورثتموها عن آبائكم بدون تعقل ، ما أنزل الله بها من سلطان ولاحجة ولابرهان وخصصتموها بالعبادة مع أن العبادة لاتكون إلا للإله الواحد الخالق الرازق وهو الذى يحيى ويميت إن الحكم إلا لله أى مادام هو الله الذى يخلق ويرزق لابد عقلا أن يكون هو الذى يحكم أما أن يأتى أحد أو طبقة أو حزب أو هيئة أو أ نظمة عالمية تنازع الله فى حكمه فقد ادعت الألوهية وليس شرطا أن تكون الجهة التى تنازع الله فى حكمه أن تقول للشعب : أنا ربكم الأعلى أو ما علمت لكم من إله غيرى كما قالها فرعون جهراً إنما منازعة الله فى حكمه هو أن يلغى أحد شريعة الله ويفضل عليها قانونا آخر كقانون رومانى أو قانون إنجليزى أو قانون شيوعى أو غير ذلك من القوانين التى لم ينزل الله بها من سلطان فقد نازع الله فى حكمه : أمر

* سورة المؤمنون : مكية وليست مدنية .

ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم أى المهيمن على كل الأديان ومعنى العبادة أى الخضوع لله والتذلل لله وطلب الحاجة من الله والخوف من الله والتقرب إلى الله والسلطة التى تنازع الله فى حكمه وشريعته هى المهيمة على عقول الناس بوسائلها الجهنمية من صحافة وراديو وتلفاز يصور فيها ما لا يرضاه الله ورسوله بسبب تغيب شريعة الله بقوة السلطان وتحكيم قوانين ما أنزل الله بها من سلطان، ولذلك قال تعالى فى سورة طه الآية ١٢٤ : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ يبعدنا عن شريعة الله وتحكيم قوانين بشرية حتى أصبحنا أذلاء تتحكم فينا دول الكفر يذلنا أبناء القردة والخنازير باستيلائهم على أرضنا ومقدساتنا وهتك أعراض نساء المسلمين لقد أعرضنا عن شريعة الله التى تحضنا على الجهاد فى سبيل الله والجهاد فريضة من فرائض الله إلى يوم القيامة .

تفسير يوسف لرؤيا الفتيين :

﴿ يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من راسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ والآن وقد انتهى يوسف عليه السلام من موعظته البليغة وبيان الخطأ فى عبادة الله أما أحدكما فسيكون ساقيا للملك وأما الآخر فيكون الصلب نصيبه ، حتى يأكل الطير من رأسه ، ولكنه لم يحدد من الذى سينجو ومن الذى سيصلب وترك الموضوع مبهما حتى لايصدم المصلوب * : ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ وقد أوصى يوسف عليه السلام إلى الذى سينجو أن يذكره عند سيده أى الملك ليعلم أن يوسف الذى أدخل السجن مظلوما إنما هو برئ وشاب صادق وأمين وقد فسر لنا رؤيانا فجاءت كما قال فنسى الناجى وصية يوسف عليه السلام فى زحمة الفرح والسرور وعودته إلى قصر الملك بما فيه من ملاه وملذات فلبث يوسف فى السجن بضع سنين .

رؤيا الملك :

﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ يرى الملك هذه الرؤيا التى أفزعته ومنعت النوم من عينيه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ما هذا؟ وقد جاءت الرؤيا واضحة كالشمس ، ولهذا جمع حاشيته والمنجمين فى مملكته ليفسروا له هذه الرؤيا : ﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ إنها أحلام مختلطة وما نحن بتفسير الأحلام المختلطة بعالمين، وقيل إنهم علموا تأويلها إلا أنهم أخفوها عن الملك حتى لايعكروا عليه صفوه كعادة المنافقين الذين يظهرون للحكام ما يسرهم ويخفون عنهم ما يحزنهم ،ولكن هذا الرأى خطأ لأن هذه الرؤيا جعلت معجزة ليوسف عليه

---

* هذا عجيب ، كيف لم يحدد يوسف « المصلوب » مع أن ذلك واضح من تفسيره الرؤيا ؟

السلام لتكون سبب خروجه من السجن وفى هذه الدوامة التى أحاطت بالملك تذكر الذى نجا : ﴿ وقال الذى نجا منهما وأدكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ وجاء الفرج ليوسف عليه السلام عندما تذكر الذى نجا وكيف أن يوسف فسر رؤيا هما التى رأياها فى السجن فكانت كما قال فقال للملك والحاشية أنا آتيكم بتأويل هذه الرؤيا فأرسلونى إلى السجن .

﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ ونقل الساقى رؤيا الملك ليوسف كما هى لازيادة فيها ولانقصان بقوله أيها الصديق لأنه كان صادقا مع السجناء فى كل شىء وطلب منه تفسير هذه الرؤيا ولكن يوسف عليه السلام لم يفسر الرؤيا فقط ولكنه بين كيفية معالجتها والسير بها إلى غايتها لكى تجنب البلاد مآسيها وتخرجها فى النهاية سليمة معافاة بلوتنقذ من حولها من البلاد التى يصيبها القحط .

﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ﴾ أى تزرعون سبع سنين متتالية خصبا ونموا وخيرا كثيرا وهى المرموز إليها بالسبعة السمان فما حصدتم فذروه فى سنبله ليحفظ من السوس والعوامل الطبيعية التى تؤثر فى الحبوب المكشوفة فأمر بأن تكون الحبوب فى سنابلها فلا يدرسون منها إلا ما يأكلون : ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ﴾ ثم يأتى بعد ذلك سبع سنين شداد لاتنتج الأرض إلا القليل ففى هذه السنين يكون لديكم ما ادخرتموه فى السنين الأولى المباركة إلا قليلا مما تحصنون أى يكون الحصاد فى السنين السبع التالية قليل النمو إلى أدنى درجة : ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ أى بعد سنين الشدة يأتى عام بخيره العميم فتكثر فيه المياه والزروع والفواكة فيعصرون منها ما يريدون ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يجعل القوم فى حاجة إليه أى إلى الصديق وفى شئ يتعلق بالقوت ورسم لهم الصديق وسيلة للتخلص من مجاعة آتية وعاد الرسول إلى الملك بتفسير الرؤيا وشرحها : ﴿ وقال الملك ائتونى به ﴾ أى أرسل الملك الرسول ليأتى بيوسف : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ﴾ وكان يمكن أن تكون هذه فرصة سانحة لإنسان مكث مظلوما فى السجن بضع سنين ولكن الصديق لم يكن متلهفا على الخروج قدر تلهفه على البراءة مما ألصق به فالحياة خارج السجن مع وجود ما يخدش الإنسان أفضل منها جدران السجون مع أصحاب المبادئ والمثل العليا فلما جاءه الرسول رفض أن يستجيب لدعوة الملك قبل أن يعلن عن براءته وكان يوسف ذا أدب عظيم إذ لم يقل ما بال امرأتك بل قال : ما بال النسوة ولابد أن يكون النسوة سماهن له بأسمائهن فلما أحضرهن الملك ، سألهن عن شأن يوسف : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أراد يوسف ألا يخرج من السجن إلا وهو ثابت البراءة مرفوع الرأس وأن

الجانية إنما هى زوجة العزيز التى بهتته . وأقرت أمامهن قائلة فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجن وليكونا من الصاغرين .. قالت ذلك على ملأ منهن وأنها نفذت وعيدها بإلقائه فى السجن وهو برئ وإن الملك أحضرهن وسألهن عن شأنهن فى ذلك اليوم الذى راودن فيه يوسف عن نفسه فكان جوابهن : حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، ويمكن أن يفهم من قولهن أنهن لاينفين مراودتهن إياه عن نفسه فالملك يسألهن ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه فيقلن ما علمنا عليه من سوء وفى الوقت نفسه يكتمن على امرأة العزيز ما باحت به أمامهن من مراودتها إياه وإن كانت شهادتهن قد أحرجت مركز امرأة العزيز وسد فى وجهها المسالك فلم تجد للإنكار سبيلا فقالت : الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين ﴾ وبهذا الاعتراف الصريح كانت شهادة كاملة ببراءته وصدقه وبعد ذلك فإن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن وبهذا الاعتراف الكامل أرادت أن يحترمها الرجل المؤمن الذى لم يعبأ بفتنتها الجسدية تقديرا لإيمانها ولصدقها وأمانتها فى حقه عند غيبته فى السجن : ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾ أى أنها تطلب الغفران والرحمة من الله وهذا دليل على أنها آمنت بعقيدة يوسف عليه السلام وأسلمت وجهها لله رب العالمين .

يوسف مستشاراً للملك :

﴿ وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ وبعد اعتراف العزيز بجريمتها وإدخال يوسف السجن ظلماً لعدم تنفيذ طلبها ورأت بعد هذه السنين التى قضاها يوسف فى السجن صابراً محتسباً أجره عند الله عادت إلى صوابها وقالت : وما أبرئ نفسى لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ، واعترف الكل ببراءته ونزاهته وطهارته من الأرجاس وقدرته على تفسير الأحلام بحكمة بالغة فلما تبين للملك كل ذلك قال ائتونى به أستخلصه لنفسى أى أجعله مستشارى فى كل شئون مملكتى ، فلما جاء يوسف من السجن مرفوع الرأس تحفه العزة والكرامة وناقشه الملك وجد عنده من العلوم ما ليس عند أحد غيره ، ووجد فى عينيه من الذكاء الخارق ، ثابت الجنان أمام الملك فلم يخضع ولم ينحن كعادة المنافقين الذين يتذللون للحكام قال الملك إنك اليوم لدينا مكين أمين فأنت الآن فى مكان الصدارة عندنا وأمين بم رأينا فيك من العفة والصدق والحكمة والعدل ، مما شجع يوسف أن يطلب ما يناسبه من المناصب : ﴿ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ ومعنى خزائن الأرض وزارة للزراعة لكى يقوم بتنظيم وتوزيع الغلال مثل البطاقات التموينية فى سنوات الخير وسنوات القحط حتى تخرج مصر وجيرانها من تلك الأزمة الطاحنة بدون انتكاسات أو انتهاكات بل فى ربط وحزم تامين ، وكان يرتحل ويتنقل فى أرجاء مصر ليتفقد الأحوال : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين ﴾ أى أرض مصر فأصبح المتصرف فيها بالعدل والإحسان ولانضيع أجر المحسنين الثابتين على المبدأ الصابرين فى البأساء والضراء : ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين

آمنوا وكانوا يتقون ﴾ هذا جزاء يوسف فى الدنيا أن مكناه من أن يحكم مصر ويصير هو المسئول فيها ولأجر الآخرة أبقى وأعظم .وهكذا أصبحت مصر التى تطعم نفسها وتطعم من حولها من الشعوب أصبحت الآن تستجدى طعامها من أعداء دينها ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم :

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ وبدأت سنون القحط وعلم الناس بأن مصر بها من القوت الكثير وأن بها ملكايعطى ولايمنع وأنه كريم الخصال ، فأمر يعقوب أولاده العشرة بالذهاب إلى مصر بعد أن عضهم الجوع فجهزوا رحالهم وأعطاهم المال الذى سيشترون به الغلال وعندما وصلوا إلى مصر دخلوا على الملك ليدفعوا الثمن ، وليأمر بإعطائهم الطعام فعرفهم ، وهم له منكرون . عرفهم لأنهم على حالهم من الفقر والملبس ولكنهم لم يعرفوه وهذا طبيعى لأنهم لم يعتقدوا أن يوسف لازال على قيد الحياة ثم إن الذى أمامهم ملك فى عظمته وأبهته ، والحاشية حوله والحرس بجانبه ، ولمعرفته بهم أمر بإنزالهم منزلا طيبا وأكرمهم وبقى يحادثهم فى هدوء من أى البلاد أنتم؟ ومن أى عائلة ؟ وكم عددكم ؟ ومن هو أبوكم ؟ فما زال بهم حتى أوقعهم فى الشرك وأخبروه بأن لهم أخا أصغر منهم يسمى بنيامين وأمر بإعطائهم الطعام : ﴿ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ وعند بدء رحيلهم قال لهم فى المرة الثانية أئتونى بأخ لكم من أبيكم ليأخذ نصيبه من الطعام وقد رأيتم بأعينكم كيف أوفى الكيل وأحترم وأقدر القادمين إلى وأنا أفضل من نزل الناس عنده : ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولاتقربون ﴾ وقد علم منهم بأن أخاه بنيامين الشقيق الذى هو أصغر منه لايزال على قيد الحياة عند أبيه فقال لهم إن لم تأتونى به فى المرة الثانية فلا كيل لكم عندى ولاتقربون ، وفى هذه الجملة نوع من التهديد بأنه ليس لكم طعام عندى بعد ذلك وقد أخبروه بأن حضور أخيهم معهم ليس بالسهل فإن أباهم لن يسمح لهم بأخذه معهم بعد ذهاب يوسف ، ولذلك قالوا : ﴿ قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ أى سنبذل كل جهدنا مع أبيه حتى يوافق على حضوره معنا :

﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ أى أمر يوسف بوضع أثمان بضاعتهم أى نقودهم فى رحالهم ليعودوا مرة أخرى : ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ أى فى المستقبل لأن مدة القحط سبع سنوات لابد فى هذه المدة أن يحضروا ليطلبوا الطعام عدة مرات : ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل ﴾ أى نحصل على الميرة ونأخذ كيلا زائدا : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ وتذكر يعقوب ما فعلوه بيوسف من قبل فازداد حزنه :

﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الرحمين ﴾ قال لقد وعدتمونى من قبل فى حفظ يوسف ولم تفوا بوعدكم والآن تريدون أن تأخذوا أخاه وهل آمنكم عليه بعد ما حصل ليوسف ، فالله هو الحافظ وقد مال قلبه لأن يرسله معهم وذلك بسبب إطعامهم ، وبعد الاستراحة من مشاق السفر : ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ﴾ أى نقودهم : ﴿ ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير ﴾ ثم أخذوا يرغبونه لمصلحة أهلهم الحيوية فى الحصول على الطعام لنمير أهلنا أى نأتى

بالطعام لأهلنا ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم حين يرافقهم ، ومعنى نزداد كيل بعير هو أن يوسف لم يعط المشترين على حسب ما يريدون ، إنما كان يعطى لكل واحد وسقاً معلوماً وذلك من الحكمة حتى تمر سنوات القحط ولكى يكون هناك قوت للجميع ، واستسلم يعقوب بإرسال بنيامين معهم تحت إلحاح الضرورة ، ولكنه اشترط عليهم : ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتونى موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾ أى تقسموا لى بالله أن تأتونى به إلا أن تغلبوا ويتم القبض عليكم جميعاً فأقسموا له على رجوع بنيامين معهم وعلى أن لايمسه سوء ويظهر أن القحط كان شديداً حتى سلم لهم أخاهم وبعد أن أخذ عليهم العهد قال الله على ما نقول وكيل زيادة فى التوكيد ، وتجهزوا للسفر مرة أخرى .. ثم جعل أبوهم يوصيهم فى رحلتهم القادمة ومعهم أخوهم الصغير ويسمى صغيرا بالنسبة لهم كلهم : ﴿ وقال يا بنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ وقد أوصاهم أبوهم أن لايدخلوا من باب واحد بل من أبواب متفرقة وقد قال بعض المفسرين : إنه خاف عليهم من الحسد لأنهم أحد عشر رجلاً و يشبه بعضهم بعضا وإن كان فيهم مسحة من جمال ، ولكن أراد أن لايلفتوا نظر الناس إليهم وذلك يدعو إلى التحدث بشأنهم وفى مقصدهم فتظن بهم الشرطة أنهم جواسيس لمن ورائهم ممن يريدون الإغارة على البلاد من الأقوام التى عضها الجوع ، وما أغنى عنكم من الله من شىء وإن كنت نبيا لأن الحكم لله وحده والمتصرف فى شئون عباده إنما على الإنسان أن يتوكل على الله فى كل أموره : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ماكان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ أى من أبواب متفرقة ثم اجتمعوا فى مكان معلوم لكى يدخلوا على الملك .. إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وهى خوفه عليهم وذلك بسبب ما علمناه وإن كان أكثر الناس لايعلمون بما يعلمه الله لأنبيائه من علم .

بنيامين فى مصر بين يدى يوسف :

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه وقال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانا يعملون ﴾ نزل إخوة يوسف بعد ذلك إلى مصر وقابلوا الملك وهم فرحون بأن سيكون لهم زيادة كيل بعير بسبب وجود أخيهم بنيامين معهم فلما رأى يوسف إخوته مقبلين عليه ومعهم بنيامين أمر غلمانه بإكرامهم وقال هذا أخوكم الصغير الذى قلتم لى عنه قالوا نعم وقال لبنيامين إنى أنا أخوك فلا تحزن بما علموا وكان بنيامين يعلم بما حدث لأخيه يوسف فلم يطق الجلوس معهم لما حضره من الحنين إلى أخيه فذهب إلى مكان منفرد وبكى ثم عاد وقدم لهم الطعام ، وأكل هو وحده وأكلوا هم وحدهم ، لأنهم عبرانيون أى يهود وهو مصرى بتربيته ، لأن المصريين يعتبرون الأكل مع العبرانيين نجاسة ولعل عدم أكله معهم لئلا ينتقد عليه المصريون ذلك وقد أجلس إخوته على المائدة بحسب ترتيبهم فى السن فبهتهم عمله هذا لأنه صادف الواقع الذى يعرفونه وأغدق على بنيامين الطعام : ﴿ فلما جهزهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ أمر يوسف بتجهيز إخوته

فملأ لهم الأكياس قمحا وأمر أن توضع فضة كل واحد فى حمله وأن يوضع صواع الملك الذى يشرب به فى رحل بنيامين وارتحلوا عن مصر فرحين بعودة بنيامين معهم سالما فساروا غير بعيد وإذ برجال الشرطة ينادونهم أيتها العير إنكم لسارقون .

﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ما ذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾ فرجعوا إليهم ماذا تفقدوا قالوا نفقد صواع الملك الذى يشرب به ومن جاء به له حمل بعير وأنا مكلف بذلك وهذا كلام رئيس الشرطة : ﴿ قالوا تا الله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ﴾ وقالت الشرطة : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ أى فما جزاء الذى ستوجد عنده سقاية الملك : ﴿ قالوا من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ فبدأ بتفتيش بضاعتهم وبدأ بالكبير أولا وانتهى بالصغير فأخرجوا الصاع من رحل بنيامين ورجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف وكلهم حسرة وندامة يطلبون من الملك الرأفة والرحمة ، ولامهم الملك على ما صنعوا فراودوه على أن يأخذ أحدهم مكانه فأبى وقال إن الذى وجدت السقاية فى رحله يستعبد لى وأما أنتم فاذهبوا إلى بلادكم صاحبتكم السلامة : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ﴾ أى دبرنا له هذا التدبير الدقيق ولو حكم يوسف قانون مصر لم يأخذ أخاه لأن السارق يعاقب ولكن هم الذين حكموا على أنفسهم بما فى شريعتهم بقولهم: من وجد فى رحله فهو جزاؤه وهنا ليست كل كلمه دين فى القرآن تكون هى دين الإسلام ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك أى فى قانون الملك ومثل قوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ أى لى عملي ولكم عملكم لأن الكافرين ليس لهم دين وإنما لهم عمل ومثل قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ أى دين الله الحق أتت به جميع الأنبياء ورفع الدرجات من الله على حسب نتيجة الأعمال فإن كان أعطى الله لرسله وبعض خلقه علما . فإن الله عنده العلم التام وما أوتيتم من العلم إلا قليلا : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق له أخ من قبل ﴾ قال إخوه يوسف هذا أمام الملك : إن كان بنيامين سرق فقد سرق أخ له من قبل أى يوسف ، وقصة هذه هى أن عمة يوسف كانت تحبه بعد وفاة أمه فأراد يعقوب أخذه منها فدبرت له مكيدة إذ ألبسته منطقة - قميص - لإبراهيم عليه السلام جد أبيه يعقوب وجعلتها تحت ثيابه ثم أعلنت أنها سرقت منها وبحثت عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف أمامه وطلبت بقاءه عندها جزاء سرقته وبهذه الحيلة استبقته عندها وكف أبوه عن مطالبتها به * : ﴿ فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴾ أى أنتم شر مكانا وإن جهر بقوله والله أعلم بم تصفون إن كان حقا أو باطلا .

إخوة يوسف يجاهدون فى استخلاص أخيهم:

﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴾ قالوا :

---

* الرأى الراجح : أنه سرق صنما لجده - أبى أمه - الطبرى .

أيها العزيز : إن له أبا شيخا كبيرا في قومه ، وهم يستعطفونه فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين فيما أحسنت به علينا وأكرمتنا : ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴾ أي نعوذ بالله أن نأخذ بريئا مكان مذنب وهو يعرف بأن أخاه ليس بسارق ، ولكن الوضع الظاهر هكذا ولو فعلنا ذلك لأصبحنا ظالمين : ﴿ فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا ﴾ يئس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهم الصغير فانصرفوا من عنده وجلسوا يتشاورون ما العمل ؟ والآن يكشف الستار عن الرجل الطيب الذي عارض قتله وأشار عليهم بإلقائه في الجب ألا وهو يهوذا أكبر أبناء يعقوب وقال لهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أسير معكم ولن أبرح مكاني هذا حتى يأذن لي أبي أو ينفذ الله حكمه في ، وهو خير حاكم ولايحكم إلا بالعدل : ﴿ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ وأخذوا يقلبون الأمر يمينا وشمالا فلم يجدوا للمشكلة حلا : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ﴾ فهو أكبرهم وأعقلهم فهو يملي عليهم ما يقولون أمام أبيهم وما رأينا ما حدث بمشاهدتنا إياه وما كنا للغيب حافظين وما كنا نتوقع أن أخانا يسرق : ﴿ وسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾ وإن كنت غير مصدق لكلامنا فسئل القرية التي كنا فيها حين استخرجوا المسروق من رحل أخينا ولتتأكد من صدقنا فاسئل العير التي أقبلنا فيها فإنهم لم يكونوا وحدهم و القوافل لاتنقطع ذهابا وإيابا في تلك السنين العجاف وإنا بم نخبرك به صادقون والقرية هنا مصر التي تم التفتيش فيها وهكذا بعد ذهابهم من مصر وكانوا أحد عشر عادوا إلى أبيهم وهم تسعة فقط .

موقف حرج :

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبرٌ جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم ﴾ قال بل سولت أي زينت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل نفس الكلمة التي قالها عند فقد يوسف ولكنه هذه المرة زاد عليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه ويهوذا المتخلف هناك إنه هو العليم الحكيم الذي يعلم حاله ويعلم ما وراء هذه الأحداث والمحن ، ولكن كل شيء يأتي في الوقت المناسب حسب حكمته ، ولكن من الله جاء هذا الشعاع إلى قلب يعقوب ، وإنها ومضات يقذفها الله في قلوب أنبيائه ومحبيه : ﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ وابتعد عنهم وقال يا أسفى على يوسف ولم يذكر بنيامين لأن حزنه على بنيامين انضم إلى حزنه الأصلي وهو حزنه على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن وسبب الحزن هو البكاء وبكاء الحزن يفرز مادة ساخنة تؤثر على العين فيغطيها بغلالة من البياض ، وبكاء الفرح إذا جاءك خبر سار تفرز العين مادة باردة تزيد مقلة العين نورا وبهاء فهو كظيم مملوء بالحزن : ﴿ قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ﴾ ولازالت قلوبهم تغلي بالحقد والحسد من ذكر اسم يوسف كراهة مستحكمة في قلوبهم وهنا نذكر قول القائل :

فلم يرحموا أباهم ولم يواسوه فى مصيبته ولم يؤيدوه فى أمل . بل راحوا يزيدون همه هما ويحذرونه من ذكر يوسف الذى لا أمل فى حياته . وإلا أصبحت مريضا أو تكون من الهالكين : ﴿ قال إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لاتعلمون ﴾ أى أشكو وجعى وحزنى إلى الله الذى يعلم السر وأخفى وأعلم من الله بأنه سيأتينى بهم جميعا ، وهو بعيد عن علمكم : ﴿ يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولاتيئسوا من روح الله إنه لاييئس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ ولم يقل لهم تجسسوا لأن التجسس خيانة توجب القتل أما التحسس فهو التحرى ولاتقنطوا من فرج الله فالقنوط من فرج الله يوجب الكفر .

إخوة يوسف واللقاء العصيب :

﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين ﴾ يستعطفونه بقولهم يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وهى المرة الثالثة فى دخولهم إلى مصر - وأحضرنا معنا بضاعة كاسدة فأوف لنا الكيل وهذا من فضلك لكساد بضاعتنا وتصدق علينا بإعطائنا أخانا إن الله يجزى المتصدقين وهنا لم يبق أمام يوسف إلا أن يواجههم بالحقيقة ويذكرهم بما فعلوه فى الماضى : ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ وهذه هى المرة الأولى الذى يخاطبهم يوسف بلغتهم العبرانية ، وبدون مترجم ، وبهذه الجملة التى رنت فى آذانهم أخذتهم إلى الماضى البعيد لتعيد فى عقولهم ما نسوه فى السنين الماضية وشعروا بتلك النبرات وأحسوا وقعها فى نفوسهم ، وحملقوا فى وجهه وكانوا لايستطيعون أن يرفعوا أبصارهم إلى وجهه لما عليه من مهابة الملك : ﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ لما رأوا ملامح وجهه وتحققوا من تقسيماته قالوا : إءنك لأنت يوسف : ﴿ قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا أنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ وقد فاجأهم يوسف بهذه المفاجأة التى لم يتوقعوها قال : أنا يوسف وأشار إلى بنيامين وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر على ما يريده الله من بلاء ومحن لمرضاة الله فالله لايضيع أجر المحسنين فى أعمالهم وفى تصرفاتهم : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ نبرة فيها كل الحقد والحسد يقسمون بالله بأن الله قد فضلك علينا وإن كنا بما فعلنا جاهلين - جاهلين بتدبير الله فى علمه وحكمه : ﴿ قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ أى لا توبيخ ولالوم عليكم اليوم فقد انتهى الأمر وصفا القلب وأسأل الله أن يغفر لكم ما فعلتموه فإنه أرحم الراحمين

ثم يحول الحديث إلى ما هو أهم عنده وهو أبوه وما به من حزن وقد أخبره بنيامين بما لحق أباه من الحزن والبكاء حتى ابيضت عيناه فأصبح لايرى شيئاً وأنه كان موقنا بنجاتك وأنك ستعيش إلى أن تتحقق رؤياك بسجودنا لك : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ والقميص به رائحة يوسف وكان الذى تسلم قميص يوسف إلى أبيه يهوذا وقال أنا الذى حملت إليه قميصه بدم كذب فأحزنته وأنا الذى أحمل قميصه الآن لأسره وقد أثبت البحث

العلمى الآن بأن كل إنسان له رائحة تختلف عن رائحة الآخر كما أن بصمة الإنسان تختلف عن جميع البصمات وذلك من إعجاز القرآن الكريم ، وأتونى بجميع العائلة لتجعلوا من مصر سكننا لكم .

يعقوب يشم رائحة يوسف :

﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ ولما فصلت العير واقتربت من ديار يعقوب قال أبوهم إنى لأشم ريح يوسف لولا أن تقولوا عنى إنى رجل خرف لصدقتم معى ما أجده من ريح الغائب لأن المحيطين بيعقوب لم يكن لهم ما له عند ربه فلم يجدوا ما وجد من رائحة يوسف : ﴿ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾ أى فى محبتك القديمة فى يوسف الذى يستحيل أن يكون حيا بعد تلك السنين الطوال : ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لاتعلمون ﴾ فلما أن جاء البشير الحامل للقميص وهو يهوذا ألقاه على وجه أبيهم يعقوب ومن شدة الفرح دمعت عيناه بالمادة الباردة التى أفرزتها عيناه من شدة الفرح فأزالت مادة الحزن من عينيه قال لمن حوله من الأقارب والعائلة ومن يلوذون بهم ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لاتعلمون ؟ لأن يعقوب يتلقى من الله ما لا يتلقاه غيره : ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ ويظهر أن فى قلب يعقوب شيئا من أبنائه وأن قلبه الآن غير صاف لهم وإن كان قد وعدهم باستغفار الله لهم، بعد أن يهدأ ويستريح : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وأطلب لكم من الله الغفران والرحمة وكلمة سوف تنبئ عن قلب مكلوم موجوع ، وشد يعقوب الرحال هو وأبناؤه وأقاربه إلى مصر : ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ هذا المشهد الرائع والفرح الذى عم الكل بدخولهم مصر آمنين وتحقيق الرؤيا ، والحمد لله الذى أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو وما كان من الشيطان الذى نزغ بينى وبين إخوتى وكل ذلك سار بقدر الله ومشيئته ولطفه إذ مر بتلك الأهوال التى يلين لها الحجر الصلد من تآمر إخوته عليه وسلبه قميصه وإلقائه فى الجب عاريا لا أنيس ولا معين ثم إخراج السيارة له وبيعه فى مصر مثل العبيد ثم محنته مع امرأة العزيز تدبر له المكائد وتمعن فى الإساءة إليه جزاء له على عفته ثم سجنه السنين كل ذلك مر بذاكرته وهو مستمسك بدينه وشرفه وكرامته ووفائه، ووهو دائب الدعاء إلى الله فخروجه من السجن فتوليته على خزائن الأرض فقدوم إخوته مستنجدين حنانه ، وهم لايعرفونه، فقدوم والده إليه بعد أن ابيضت عيناه من الحزن عليه وعلى أخيه ، ولم يزل بياضهما إلا بإلقاء قميصه عليه ، ثم سجود أبيه وأمه أى خالته فالخالة أم وإخوته له .. مر هذا الشريط بمخيلة يوسف وفى ختام هذا المشهد المثير يدعو يوسف ربه : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر

السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ وهو حكم مصر وإدارة شئونها وعلمتنى من تأويل الأحاديث أى تفسيرها وشرحها فاطر السموات والأرض أى خالق السموات والأرض بقدرتك وحكمتك أنت وليى فى الدنيا والآخرة لا ولى لى سواك فى كل أمورى سرها وجهرها ، وفى تذلل وخضوع يطلب من الله أن يتوفاه مسلما مخبتا لله رب العالمين ، ويطلب كذلك إلحاقه بالصالحين من آبائه وأجداده.

وبهذه الآية اختتمت قصة يوسف عليه السلام ثم بعد ذلك يتجه الخطاب فى السورة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون * وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ أى تلك القصص نوحيها إليك يا محمد وهى من أنباء الغيب ما كنت تدرى به لولا أن أوحينا إليك وما كنت حاضرا معهم حين أجمعوا أمرهم وهم يمكرون بيوسف وبأبيهم وما أكثر الناس ولو حرصت بمصدقين هذه القصة .

حكم وعبر من القصة :

إن نساء الأمراء والكبراء قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء وامرأة العزيز التى صرخت فى وجه زوجها من قبل : ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب اليم ؟ وقفت بعد ذلك تقول : الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه لماذا ؟ لأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ولقد جعل يوسف عليه السلام الله تعالى وحده وليا له فى الدنيا والآخرة لاولى سواه فكان ما كان أما الشيخ الصابر يعقوب عليه السلام الذى غاب عنه ولده الحبيب ، وقال يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن وقال إنما اشكو بثى وحزنى إلى الله سبحان الله نبى من الأنبياء ومع ذلك لايعرف أين غاب عنه ولده ويتجه إلى الله تعالى بالدعاء : «إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فعاد إليه ولده نبياً رسولاً معززاً مكرماً فلعل الذين يشكون أحزانهم إلى غير الله ـ سبحانه يعتبرون .. لقد قال يعقوب عليه السلام لأولاده وما أغنى عنكم من الله من شئ إن الحكم إلا لله وقد جاء قول الله تعالى مؤكدا مقالة يعقوب ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شئ سبحن الله نبى يعقوب ابيضت عيناه من الحزن وقال يا أسفاه على يوسف لعل أصحاب الشكوى إلى القبور يتعلمون لعل الذين يظنون أن الموتى يملكون ما عجزت عنه الأنبياء لعلهم يتفكرون لعل هؤلاء يتعلمون إلى أين يتجه الدعاء ؟ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ثم يقول يوسف عليه السلام . توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين لعل أصحاب إسلام شهادات الميلاد والبطاقات يتعلمون أن الواحد منا قد تطول لحيته وتزداد حبات مسبحته ويجلس متكئا يظن أنه قد جمع الإسلام كله بين يديه ونبى الله يوسف بعد هذا الصراع الهائل الطويل المرير يقول : توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين، تعلموا يا أصحاب الغرور ولقد قالها من قبل جده خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وقالها أبوه يعقوب عليه السلام : يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، لعلنا نتعلم المعنى الكبير

الذى يحمله دعاء يوسف عليه السلام : أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين .إن الإسلام هو أن تجعل الله تعالى وحده وليا لك فى الدنيا والآخرة فمن مات على هذا فقد تحقق فيه قول الله توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ومن جعل غير الله تعالى وليا له فلن يموت مسلما ولن يلتحق بالصالحين .

رد طيب على متعلم عربى فى بلاد الغرب :

هذه قصة ذكرها الشيخ عبد الوهاب النجار صاحب كتاب قص الأنبياء وهى عبارة عن مناقشة حدثت بين أحد وزراء المعارف فى عهد الخديوى السابق وبين أحد المشايخ ذلك أن الوزير كان من الذين تعلموا فى مصر التعليم الابتدائى والثانوى ثم ذهب إلى أوربا ليتم دراسته فعاد نسخة صحيحة من التربية الفرنسية والتفكير الفرنسى ذهب الوزير يفتش فى مدرسة المعلمين بالزقازيق ،ودخل على شيخ يدرس لتلاميذه الأخلاق فأعجبه تدريسه ، وانتهى الدرس فسأله الوزير : من أى مرجع تستقى هذا العلم ؟ فقال الشيخ :من القرآن الكريم . فقال الوزير متهكما : القرآن ؟؟ قرآن إيه ياخويا أتعلم الأخلاق من «وراودته التى هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك - ولقد همت به وهم بها - فقال له الشيخ : ياسعادة الباشا : إن هذه السورة التى لم تعجبك يمكننى أن أستخرج منها ما يملأ مجلدات من أمهات الفضائل والأخلاق فأستخرج منها العفة والفضيلة فى شاب فى ريعان شبابه محفوف بالمغريات وموجبات الصبوة فلم يكترث لذلك واستمسك بمبدأه ولقد لقى من الأهوال وعانى من الصعوبات فى سبيل استمساكه بالفضيلة فلم يغير السجن مبدأه مع أنه لو أجاب لكان منعما مرفها منظورا إليه بعين الإكبار ، وأن الاستمساك بالدين أصل لكل فضيلة فاستمساكه بدينه جعله يستهين بالأخطار ، وأن الحق وإن استتر زمنا بثوب من التضليل ، لابد أن يظهر ولو بعد .. حين ولما انتهى الشيخ إلى هذا الحد قال له الباشا : سى الشيخ امسح - أى سامح وأنا أسامح

***

القرآن للتدبر لا للتندر :

وهناك قصة رواها أحد الاصدقاء وكان مدعوا فى حفل زاخر وكان المقرئ يقرأ فى سورة يوسف حتى إذا بلغ قوله تعالى : ﴿ وراودته التى فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ حتى صاح بعض الشباب وقال : إيوه يا مولانا ادخل فى الغويط ، وهكذا القلوب الفارغة التى لاتتدبر القرآن وما فيه :

ونختم هذه القصة بقول سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليىّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين﴾

صدق الله العظيم والحمد لله رب العالمين .

الفهرست

قريباً إن شاء الله

الجزء الثالث

قصص :

شعيب • موسى • هارون • أيوب • داود • سليمان

اقـــــرأ

للأستاذ / محمد عبدالله السمان

- الشيخ كشك — دار الفضيلة

فيثارة الدعوة إلى الله

- الإسلام : الجدار المائل — دار الروضة

ووليمة حيدر حيدر

- تأثيم الذمة فى تضليل الأمة

رد على كتاب البرهانية

- لمـــاذا أسـلمت ؟

تحـقيـق

- رسائل الجيب الإسلامية

١) الإسلام — ٢) الإيمان

٣) عباد الرحمن — ٤) سبعة يظلهم الله

وقريبـــاً

- الأمة الإسلامية

تحت الصفر

جــــزءان